

المعرفة المشتركة في أندلس التسامع أثر الغزالية في فكر يهود الأندلس

أحمد شحلان (1)

نريد في هذا البحث أن نقدم أنموذجاً للتداخل الثقافي، والتكامل المعرفي، وصورة لعطاء الحضارات الراقية التي تتشدد البنيان، وتروم نفع الإنسان بصفته إنساناً دون هوية أو نحلة. ونعرض ذلك موجزاً في فقرتين أردنا بهما أن تكونا مدخلاً للفقرة الثالثة التي نريد أن نسهم بها في هذه الندوة المباركة. أولى الفقرات كيف رعت الحضارة الإسلامية قسماً من رعايا بلاد الإسلام وهم اليهود، وكيف استفاد هؤلاء من علم الأمة. ثانيها أنموذج من أعلام اليهود تأثر بوجه من المعرفة له خصوصياته. وثالثها نشر نصٍّ وتحقيقه ليكون أنموذجاً ناطقاً يعبر عن قوة فعل الثقافة وعن تجردها من صفات الخصوصيات أصلاً.

وننبه بادئ ذي بدء، على أننا لن ندخل في تفاصيل الفقرتين الأولى والثانية، لأننا اتخذناهما مدخلاً للنصّ المحقق ولا غير، ذلك أننا فصلنا في أمرهما في بعض كتبنا التي هي : ابن رشد والفكر العبري الوسيط : فعل

(1) أستاذ اللغة العبرية ومقارنة الأديان والفكر اليهودي في الغرب الإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس - الرباط .

الثقافة العربية الإسلامية في الفكر العبري اليهودي⁽²⁾، والتراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي : التسامح الحق⁽³⁾ ، وكتب أخرى نعدّها للنشر، فما نستعرضه هنا هو تلميحات وإشارات لا أقل ولا أكثر.

1) كيف رعت الحضارة الإسلامية رعاياها اليهود في بلاد الإسلام ؟

بلغ يهود المجتمع الإسلامي ما بلغوه من حظوة وعلم ومكانة لسببين : أحدهما يتعلّق بالمجتمع الإسلامي، وثانيهما يتعلّق بهم بوصفهم ذوي معتقد يضع لهم حدوداً ويخط خطوطاً.

أ- كان اليهود يعانون عزلة بين الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها طوال الفترة التي سبقت الإسلام، ولم تفسح لهم هذه الشعوب، خصوصاً بعد ظهور المسيحية، مجالاً فيه ينشطون في المتاجرة أو يطلبون المعارف، بلّة يحتلون مكانة في سلّم التدبير، إلّا إذا وضعوا دينهم في ظلّ أو تتكروا له. ولم يعرفوا أمة من الأمم غير أمة الإسلام، فتحت لهم صدرها بالمقدار الذي كان، ولم يعايشوا عهداً من العهود مثل عهد الحكم الإسلامي في الشرق والغرب الإسلاميين، مكنّ لهم في الاقتصاد والتدبير والمعرفة. إذ عرفوا أمناً اجتماعياً وازدهاراً اقتصادياً ورقياً فكرياً، لم يعرفوه في غير حضارة الإسلام. ولن تعسر البرهنة على ذلك الأمن الاجتماعي والازدهار الاقتصادي والرفق الفكري، لأنّ جماع الوقائع التاريخية تحدّثت عنهم وهم في قلب اقتصاد المجتمع الإسلامي يتحرّكون وينشطون، ولأنّ ما جاء في مجامع الفتاوى وكتب الحسبة ممّا لا ينزع منهم حقوق، تحدّث عنهم وهم يُكوّنون عنصراً من عناصر المجتمع الإسلامي لهم حقوق وعليهم واجبات. ولأنّ ما جاء في مصنّفات فهارس العلم والعلماء، مشرقية ومغربية، مثل فهرست ابن النديم المتوفى سنة 380 هـ،

(2) المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 1999، (جزآن 769 صفحة).

(3) منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2006.

وطبقات الأطباء والحكماء لابن جليل القرطبي المتوفى حوالي 384هـ، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة المتوفى سنة 668 هـ، والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم القرطبي المتوفى سنة 595هـ، وكتاب الملل والأهواء والنحل لأبي الفتح محمد الشهرستاني المتوفى سنة 548 هـ، وغيرها كثير، تحدث عن المشتغلين منهم بالعلم والمعرفة بكثير من التقدير والاحترام والإشادة بما فعلوا في العلم، مثلهم مثل العلماء المسلمين. ويشهد بالأولى، على ما بلغوه، هذه الدفقة العلمية التي طرأت في الغرب الإسلامي، في كل مجالات العلوم، وهي التي جعلت من عهود الأندلس العصر الذهبي للفكر العبري اليهود على مدى تاريخه. شهادة من كبار علماء اليهود والمهتمين بتاريخ الفكر في الغرب الإسلامي وليست مناً. وكان لذلك أسباب منها :

- أن الخلافة الإسلامية في الأندلس، لم تنس أفضال كل من ساهم في بناء أسس هذا الصقع أيام الفتح، وكان لليهود بعض من إسهام، ردّ فعل على ما فعلته فيهم الكنيسة والإقطاع، واستجابة لما سمعوه عن الفاتح من عدل، فنالوا جزاء بإحسان (4).

- أن المناخ السياسي الجديد الذي اتخذته الخلافة في الغرب الإسلامي، أصبح غير الذي كان، إذ اكتسبت هذه الخلافة، اعتماداً على ما امتحن به ساستها في الشرق الإسلامي، تجربة سياسية مفادها أن العصبية القبلية لم تعد قوياً لبناء دولة إسلامية قوية، خصوصاً في هذا الربع من العالم، ولذلك أفسحت المجال لكل القدرات مهما كانت معتقداتها.

(4) الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب [تحقيق محمد عبد الله عنان] ط. 2، القاهرة، ج 1، ص. 101. والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي [تحقيق ج. س. كولان وليفسي بروفنسال] ط. 2، بيروت، 1980، ج. 2، ص. 12. يشير هنا ابن عذاري إلى انضمام اليهود إلى الجيوش لحراسة الحصون.

- أن هذا المنظور الجديد لبناء الخلافة، مكن الكثير من اليهود، من شغل المناصب السياسية والاقتصادية داخل الدولة الإسلامية، فتقلدوا الوزارات وقاموا بالسقارات، وكلفوا بجمع الأموال والجبایات (5).

- أن هؤلاء كوّنوا طبقة غنيّة قلّدت كبار الدولة وذوي السلطان، في حماية العلم والعناية بالشّعراء وتشجيع المهتمّين بالتّأليف في اللّغة والأدب، فخلقوا سوقاً رائجة للعلوم اليهوديّة دينيّة ولغويّة لم تعرف في غير هذا المكان.

- أن ذلك الزّهو الذي شعر به أهل الأندلس المسلمون، والذي جعلهم يسلكون في كثير من مسالك العلم، مناهج يمكن أن نقول إن لها صبغة أندلسية متميزة، كان هو نفس الزهو الذي شعر به كبار الطوائف وعلمائها في الأندلس، فأنشأوا مدارس علمية نافسوا بها مدارس العراق وفلسطين، في مجال البحث الدّيني، وخصّوا أنفسهم بتقعيد اللّغة وتصنيف المعاجم، وبأنواع من الإبداع في الشعر والنثر، وبالتّأليف في العلوم العقلية، وبالغوص عن معاني التّأويل، ومراقبي التّأمل.

- أن مجال الفكر الفلسفي والعلمي في الأندلس، تعدّى حدود اللّغة، بل اللّغات، وتعدّى حدود الخصوصيات، وبرع في كثير من أنواع الاختراع والكشف والإبداع، فتعدّت شهرة هذا كلّ آفاق الحدود والجنسيات والأديان، فأصبحت الأندلس مهوى كلّ طالب علم أينما كان، ومهما بلغت مرتبته، وأصبحت اللّغة العربيّة لسان العلم واللّغة، وزالت الفروق والحدود في مقعد الدّرس، كما زالت في مجال السياسة والتّدبير. وقد استفاد يهود الغرب الإسلامي، بل وعلماءهم الذين توافدوا على الأندلس من كلّ صقع، من هذا الفيض، فتجمع لهم تراث ضخم اعتمد العربيّة والعلوم الإسلاميّة حيناً،

(5) الإحاطة، ج. 1، ص. 137-139. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام [تحقيق إحسان عباس] الدار العربيّة للكتاب، ليبيا-تونس، 1975، ق. 1، ج. 2، ص. 666. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمفري [تحقيق إحسان عباس] بيروت، 1968، ج. 3، ص. 221.

والترجمة والاقتباس أحياناً أخرى. هذا هو السبب الذي تعلق بالإسلام وهو يفتح صدره لليهود.

ب- أما ما يتعلق باليهود، فيتمثل في قبولهم هم كل العلوم الإسلامية، فشرّبوا منها حتى الثمالة، دون تحرّز، وحتى إن كان، فسيصبح أمراً داخلياً بين طوائفهم كما سنرى. ولم يسبق لليهود، وقد عاشوا بين أقوام تعددت آلهتهم وأبدعوا فنوناً، كأقوام الهلال الخصيب وبلاد الشام، وبين أقوام كان لهم شأو في المعرفة وضروب الفنون ومختلف الإبداعات الأدبية، كالمصريين واليونان والفرس، وبين أقوام برزوا في وضع الشرائع والقوانين والآداب كالروم، أن أخذوا منهم علماً أو أصبحوا شهرة في ذلك بينهم⁽⁶⁾، وكل ما أنتجوا منذ ظهور اليهودية حتى مجيء الإسلام، لم يتعدّ موسوعة التلمود بقسميه البابلي واليروشليمي، (وهي في الأصل شروح توراتية وفتاوى شرعية) وبعض "المدرشيم" (تعاليق توراتية وأوعاظ وبعض فتاوى)، وبعض الكتابات التي بها قننوا كتابة التّوراة وطرق تلاوته، وأشعاراً بدائية دينية هي تقليد لما جاء في التّوراة. لقد حرّموا على أنفسهم قبول المعرفة الإنسانية الشاملة إذ ذاك، بلّة المشاركة والإسهام فيها، لأنها كانت تعتبر عندهم، وثنية نجسة دينوية. زاد في ذلك ما عانوه من عزلة مفروضة أو مختارة. أمور كلها لم يكن لها نظير في الإسلام، فهم فيه أناس لا تميّزهم إلّا تقواهم، وهم في مجتمعه أناس يأخذون على قدر ما يعطون بإخلاص، والإسلام دين موحد جاء ليبعد الإنسان عن الوثن، وما طهر في الديانة اليهودية الحقّ، طهر في الإسلام. ولذلك أقبلوا على ثقافته دون استثناء، فقلّدوا مناهج المسلمين في تقعيد اللّغة ووضع المعاجم، وفي إيجاد موسوعة ترتبط بكتاب التّوراة كما هو موجود في القرآن، أي موسوعة علم التّوراة، متضمنة الدراسات اللّغوية والبلاغية والفقهية والأصولية

(6) أستثني هنا ما ورد في التوراة من تراث الشعوب القديمة لأنهم لا يعتبرونه هم أخذاً ولا يعترفون بذلك، وأستثني بعض أعلامهم الذين اشتهروا على عهد العصر الهليني مثل فيلون، لأن هؤلاء كانوا نتاجاً للثقافة اليونانية ولم يستغلّوها في معارفهم اليهودية كما هو الشأن في الإسلام.

والتجويدية. وجعلوا التفسير مدارس متعدّدة، منها الظاهري ومنها التأويلي، وأعجبوا بأغراض الشعر العربي وفنونه وقوالبه، وبعروض الخليل وبحوره، خصوصاً في الأندلس، فاستعملوا كلّ هذه لأوّل مرّة في أشعارهم، فنظّموا في كلّ الأغراض التي نظّم فيها شعراء العربية مدحاً وهجاءً وتكسباً وخمريات وغزلاً ووصفاً للطبيعة ورثاء وألغازاً، ونوعوا مثلهم قوالبها، من مقطعات إلى مطوّلات فموشحات فمقامات وأزجالاً، في حين أنّ كلّ العهود السابقة عندهم لم تعرف إلاّ النظم الديني البسيط.

ثمّ صار بهم الأمر أبعد من ذلك، وقد أصبحوا جزءاً كاملاً في المنظومة التعليمية في الغرب الإسلامي، كما تدلّ على ذلك المعارف التي وصلتنا من أعلامهم، فغاصوا في علم الكلام، وتبنّوا الاتجاهات الفكرية الإسلامية في طرفي نقيضها : تلك التي رفضت الفلسفة ونتاج الآخر في اتجاهها الغزالي، ومناقضتها التي فتحت صدرها للفكر الإغريقي وما يتبع ذلك، في اتجاهها الرشدي. وقد أصبحت أعمال ابن رشد قرينة للتّوراة عند المهتمّين من اليهود بالفلسفة والعقل. وبرز هذا الصّراع في المجتمع اليهودي في الغرب الإسلامي وامتداداته، حتّى جنوب فرنسا وصقلية وإيطاليا بل وصل أعتاب أوروبا الشرقية، على مدى قرون.

في خضمّ هذا الصّراع قرأت كلّ أعمال ابن رشد، ونُقلت بعربيّتها إلى الحرف العبري وترُجمت إلى العبريّة. وفي هذا الصّراع، ترجمت جلّ أعمال حجة الإسلام أبي حامد الغزالي إلى اللّغة العبريّة. وبما أنّنا في هذه النّوبة نريد أن نبيّن تأثير جانب الاتجاه الغزالي في معارف يهود الغرب الإسلامي، فإنّنا لن نذكر إلاّ ما ترجم للغزالي، لننتوّل به إلى العَلَم الأنموذج: بحيا بن بقودا، الذي نريد أن ننشر مقدّمة كتابه، مساهمة منّا في هذا اللّقاء العلمي. ونروم بهذا أن نبيّن قوّة سلطان الغزالية على اليهود من وجه، وكيف كان تأثير كتاب هذا العَلَم اليهودي الغزالي المذهب، في من جاءوا بعده من وجه آخر، حيث ترجموا وشرحووا وعلّقوا، بل نقلوا إلى بعض مسيحيي الغرب مذهب الغزالية باعتبارها

جبهة تقف في وجه المدّ الفلسفي. وإن لم يكن هذا التصوّر واضحاً في ذهن بحيا بن بقدا، لأنّ الصّراع في زمانه لم يتخذ له الأبعاد التي صارت له فيما بعد.

وهذه هي الأعمال الغزالية التي ترجمت إلى العبريّة :

- مقاصد الفلاسفة، وترجم ثلاث مرّات، أولاًها لإسحق البلاغ، (ق13)، وهي ترجمة وتعليق. وثانيتهما ليهودا نتن. وثالثتها لمجهول. وشرح كتاب المقاصد عديد من اليهود.

- تهافت الفلاسفة، ترجمه شرحه هالفّي، (ق15). وله ترجمتان أخريتان.

- ميزان العمل، ترجمه أبرهام بن حسداي، (ق13).

- القسطاس المستقيم، ترجمه يعقوب بن مخير، (13 بداية 14).

- مشكاة الأنوار، ترجمه إسحق بن يوسف الفاسي (ق13؟).

- معيار العلم، ترجمه موسى النربوني، (ق14).

- كتاب النظر، ترجمه إسحق بن نتن هاسفردي .

- قصيدة قل لإخواني، ترجمها أبرهام جافنسون (ق 16) (7).

والذي يحسن أن ننّبه عليه هنا- والذي يُظهر سلطة الغزالي القويّة على كلّ أولئك الذين تحزبوا ضد الفلسفة، وكانوا كثراً، وكان فيهم كثير من الأبحار الذين تبادلوا المراسلات في أصقاع أوروبا، لمنع الفلسفة وتكفير أتباعها من

(7) هذا ما ذكرته المصادر والبibliographies، وقد وقفنا عنده بكثير من التحليل والتساؤل في كتابنا ابن رشد والفكر العبري اليهودي، ج. 1، من صفحة 218 إلى 226. ومن الأكيد أن غير هذا من ترجمات عبرية أو نصوص عربية مكتوبة بالحرف العبري ضاع.

أبناء دينهم (8) - هو أن اليهود قرأوا الغزالي كلّهُ في كتبه العربية أو تلك التي تركوها عربية واكتفوا بنقلها إلى الحرف العبري، أو في تلك التي ترجموها وشرحوها بالعبرية. وقد ضاعت كما ضاعت آلاف من المخطوطات، في نكبة الطرد من الأندلس، أو قسا عليها الدهر، أو هي اليوم تقبع في ظلّ إهمال. ودون أن نفصل في الحديث، يمكن أن نقول، إن فلاسفتهم أيضاً لم يسلموا من سلطان أبي حامد، فهذا كبيرهم موسى بن ميمون، الذي وضع لهم أعظم كتاب في الفلسفة وأهمّه وحتى اليوم، لم يجد له ما يُجمل مبتغاه إلا في عنوان كتاب أبي حامد "المنقذ من الضلال" فوسم هو مؤلفه بعنوان "دلالة الحائرين"، مع الفارق الكبير بين المحتويين. ولننتقل إلى باكورة الفكر الغزالي عند اليهود.

2) بحى بن يوسف بن بقودا وكتاب الهداية إلى فرائض القلوب والتنبية إلى لوازم الضمائر.

عاش بحى بن بقودا خلال المنتصف الثاني من القرن الحادي عشر بسرقسطة التي شغل فيها منصب الحبرانية. ولا يعرف عنه إلا النادر جداً. ويرجع الفضل في هذا النادر إلى مؤلفاته، وخصوصاً كتابه "الهداية" إلى فرائض القلوب (9)، الذي نستشف منه رجلاً متضلّعاً في علوم التوراة والتلمود والآثار اليهودية الأخرى. واستقى بحى جلّ ما يعرف من علوم كلامية، إن لم نقل كلّها، من المعارف العربية الإسلامية التي سادت إذ ذاك في الأندلس، وخصوصاً معارف الأفلاطونية المحدثة وعلم التصوّف وألف كتابه "الهداية إلى فرائض القلوب والتنبية إلى لوازم الضمائر"، بعربية فصيحة سليمة، وكتبه

(8) أنظر تفصيل هذا الصراع في كتابنا ابن رشد والفكر العبري، ج. 1، من صفحة 227 إلى 237.

(9) لجبا مؤلفات أخرى هي النسق والمرتبة في الخليقة، ومجموع شعر في موضوع النفس، وضاعا معاً، وينسب إليه كتاب ثالث عنوانه معاني النفس، نشر نصه العربي مع شرح ألمني I. Goldziher في برلين 1907.

بخطّ عبري على عادة اليهود⁽¹⁰⁾. وأصبح الكتاب تورااة الزّهاد اليهود فيما بعد.

سبق لنا أن نشرنا تحليلاً لهذا المؤلّف في كتابنا ابن رشد والفكر العبري الوسيط⁽¹¹⁾ ، لذلك نكتفي هنا بسررد أبواب الكتاب، لأنّ منطوقها دالّ على المضمون، لنترك تصوّر ذلك في المقدّمة التي نحققها هنا، وهذه هي الأبواب :

في شرح وجوه إخلاص التّوحيد لله عزّ وجلّ.

في شرح وجوه الاعتبار بالمخلوقين وفضل نعمة الله عليهم.

في شرح وجوه وجوب التّزام طاعة الله علينا.

في شرح وجوه وجوب التّوكّل على الله عزّ وجلّ.

في شرح وجوه وجوب إخلاص عملنا لوجه الله والتّحفظ من الرّياء.

في شرح وجوه وجوب التّواضع والخشوع لله علينا.

في شرح وجوه وجوب التّوبة وحدودها وتوابعها.

في شرح وجوه وجوب محاسبة الإنسان نفسه لله.

(10) طبع الكتاب بحروف عربية بعنوان الهداية الى فرائض القلوب، تأليف الواعظ الديان يحيى بن يوسف بن باقودا الأندلسي، اعتنى بطبعه على أصل النسخة الخطية الموجودة في أكسفورد وباريس وبنزسبورك وزاد عليه مقدّمات وتمهيدات ومباحث عن متن الكتاب ومصادره وترجمته العبرية ومسائل تاريخية ولغوية إبراهيم سالم بنيمين يهودا دكتور في العلوم الفلسفية وأستاذ للغات الشرقية في برلين طبع أول مرة بالمطبعة البريلية في ليند 1907-1912 وترجم الكتاب إلى اللغة العبرية يهودا بن تبون حوالي 1160م، كما ترجمه في نفس الفترة تقريباً، يوسف قمحي، ترجمة لم يكتب لها نفس ذبوع ترجمة ابن تبون. ثم ترجم إلى عديد من اللغات منها الفرنسية :

Bahya Ibn Paquda, Les devoirs du cœur, Tra. A. Chouraqui, Desclée de Brouwer, 1972. وقد تصرف المترجم كثيراً في ترجمته، مما يجعلها محدودة الفائدة بالنسبة للذي يريد أن يعرف أسلوب ابن بقودا وكيفية استعمال استشهاده وارتباطه بالمصطلح الغزالي. ونشر ترجمة ابن تبون إسرائيل = هولي وهي ر. יהודה אבן תבון, ספר חובות הלבבות, ישראל הלוי, הוצאת ספרים, אשכול, ירושלים, תובב"א, שנת ה תשכ"ט לפ"ג. وسنعمد هذه الترجمة في تحقيقنا للمقدمة المنشورة هنا.

(11) الجزء الأول، الصفحات 73-83..

في شرح وجوه وجوب الزَّهْد وما يصلح لنا منه.
في شرح وجوه وجوب المحبة في الله عزَّ وجلَّ ودرجاتها.

نهج بحى في كتابه نهج الخطاب المباشر، فحديثه مع طالب مريد، يريد أن يوضِّح له السَّبِيل القويم في الحياة، فزوَّده ب زاد تعدَّدت مشاربه ومصادره، وكان يخاطبه بيا أخي، وقد يكون هذا المريد هو كلَّ قارئ للكتاب في الطَّائفة. وهذا هو نفس المنهج الوارد في كتاب إحياء العلوم وعجائب المخلوقات، وفي بعض كتب الغزالي الأخرى. وهو النهج الذي استعمله كثير من علماء الإسلام مثل ابن طفيل وابن رشد وغيرهما كما هو معروف. وكما اعتمد هؤلاء المثل للنبيان والحجة اعتمد ذلك بحى أيضا.

وإذا كانت التَّوراة والتَّلْموذ والمدرشيم وأقوال بعض الأعلام اليهود، مثل سعيده كُؤُون، شواهد دالَّة على ما يريد، فإنَّها في واقع الأمر تظهر وكأنَّها زائدة، إذ يمكن أن تسلب من الكتاب دون أن تُسبب خلا في بنيته وتركيبه، فيصبح الكتاب بمحتواه جزءاً مكوِّناً لتلك المؤلَّفات العربيَّة الإسلاميَّة الَّتِي نهجت نهجه إذ ذاك فَعَبَّوْا الكتاب نفسه، الهداية إلى فرائض القلوب، ينبئ عن أثر مذهب الاعتزال الَّذِي يضع فرائض القلوب في مقابل فرائض الأعضاء. ونظريَّة النَّفس الَّتِي هي فيض في جسم غريب، تنتظر العودة إلى أصلها وموضعها وهي محور الكتاب، أو من أهم محاوره، تظهر الصِّيْغَةُ الأفلاطونيَّة المحدثَّة الَّتِي نشرها إخوان الصِّقَاء، وقد وصلت رسائلهم إلى الأندلس قبل تأليف بحى بن بقودا كتابه الهداية بسنين قليلة. وإذا كان لُبَّاب الكُتُب الإسلاميَّة الَّتِي قصدت تهذيب النَّفس ورسن طريق السَّعَادَةِ الأبديَّة، هو القرآن والحديث النَّبَوِي، فإنَّ بحى في كتابه استثنى القرآن، ولكنه أورد الكثير من الأحاديث النَّبَوِيَّة، إمَّا معنى وإمَّا نصّاً، بعد أن حذف ذكر اسم النَّبِيِّ وعوضه به قال أحد الفضلاء أو قال آخر وقال بعض الصَّالِحِينَ. كما أنَّ بحى أتى بالكثير من أقوال الخلفاء الرَّاشِدِينَ مثل أبي بكر وعمر بن

الخطاب. وعلي. وكذا عمر بن عبد العزيز، أو بعض الصحابة، وأعلام الإسلام ومتصوفاتهم دون ذكر أسمائهم. ومن البديهي أن يتبادر إلى الذهن مقارنة محتوى الهداية بمؤلفات الغزالي، مثل إحياء علوم الدين والمضنون به وميزان العمل على الخصوص، وهذا أمر يدعو إلى التفتيش في هذه الكتب ومقارنة محتواها بمحتوى الهداية، بالرغم من الآراء المختلفة حول هذا الموضوع، وهي الآراء القائلة بأن ابن بقودا ألف كتابه في وقت لم تُولف فيه بعد كتب الغزالي، أو على الأقل لم تصل الأندلس. والواقع أن ابن بقودا نقل نصوصاً كاملة من كتاب الحكمة في مخلوقات الله للغزالي، ومن غيرها وتحتاج إلى نظر.

وإذا كان ابن بقودا بخيلاً في ذكر مصادره غير اليهودية، وإذا تجنب ذكر أسماء ومؤلفات من نقل عنهم أو نقل لهم، فإنه فيما يتعلق بذكر أسماء اليونانيين لم يكن كذلك، إذ ذكر كتاب الهندسة لإقليدس، وذكر أرسطو ورد عليه رأيه، وذكر جالينوس وكتابه منافع الأعضاء. ولم يذكر من الشعر العربي إلا بيتاً واحداً للمتنبّي دون أن ينسبه لأحد، وهو :

وإذا كانت النفوس كباراً * تعبت في مرادها الأجسام

ولا شك أن هناك مصادر أخرى اعتمدها ابن بقودا تحتاج إلى كثير من الوقوف لاستخراجها، وخصوصاً مؤلفات التصوف التي كانت معروفة إذ ذاك. موضوع آخر نكتفي بتبيان أثره في أسلوب ولغة ومصطلح الكتاب كما تبرهن عليه هذه المقدمة التي ننشرها هنا محققة.

(3) بين يدي النص المحقق

أخذنا نصّ مقدّمة الهداية إلى فرائض القلوب، من نشرة إبراهيم سالم بنيامين يهودا، المطبوعة في ليدن سنة 1907-1912، وعدد صفحات الكتاب كاملة 407 صفحة من الحجم العادي. نقل الناشر النصّ من الحرف العبري

الذي به حرّره المؤلف أصلاً إلى الحرف العربي، غير أنه ترك أسماء الأعلام والمؤلفات والمصطلحات الدينية والمختصرات العبرية وأسماء الفرق والشهور وغيرها كثير، بالحرف العبري. ولم يعرف بأي علم أو علم أو كتاب أو مذهب أو مكان أو مختصر أو مصطلح ديني أو لغوي، وباختصار لم يتعدّ عمله مقابلة المخطوطات التي نشر مضمونها. كما أنه ترك نصوص الاستشهادات التوراتية أو التي من كتب أخرى عبرية بلغتها العبرية، والاستشهادات التلمودية بلغتها الآرامية،⁽¹²⁾ وقد ترجمنا نحن النصوص الواردة في المقدمة من اللغتين المذكورتين، وأخرجنا النصوص العبرية والآرامية من المتن واحتفظنا بها في الحاشية ليستفيد منها من كان قادراً، وقد حاولنا جهد المستطاع تقريب النصّ وتسهيله، بالتعريف بما احتاج إلى تعريف ومما هو غريب عن الثقافة الإسلامية.

(12) وكل الكتاب هو بهذا الشكل، ويستحيل على القارئ العربي أن يستفيد منه مطلقاً.

مقدمة

كتاب "الهداية إلى فرائض القلوب والتنبيه إلى لوازم الضمائر"

قال المؤلف تبارك الله إله إسرائيل (13) الحقيق بمعنى الواحد الحق، الأزليّ الوجود، الدائم الجود، الذي أبدع الموجودات للدلالة على وحدانيته، واخترع المخلوقات للشهادة على قدرته، وابتدأ المحدثات للتنبيه على حكمته وعموم نعمته، كقول الولي (14) عليه السلام :

"يُسَبِّحُ أَعْمَالُكَ جِيلٌ بَعْدَ جِيلٍ، وَبِجَبْرُوتِكَ يُخْبِرُونَ" (15). وقال : "تَحْمَدُكَ يَا رَبُّ جَمِيعُ خَلْقِكَ، وَيُبَارِكُكَ أَتْقِيَائُكَ. يَتَكَلَّمُونَ بِمَجْدِ مَلَكُوتِكَ، وَيُحَدِّثُونَ" (16).

ومن أشرف نعمة أنعم بها على الناطقين، بعد إيجادهم لهم على صفات يتم بها تمييزهم ويكمل فهمهم، العلم (17) الذي هو حياة لقلوبهم، وسراج لعقولهم، والهادي لهم إلى رضا الله جلّ وعزّ، والعاصم لهم من سخطه في الدنيا

(13) إسرائيل هو الاسم الذي سُمي به الربّ النبيّ يعقوب بعد امتحان له، وبه سُمي نسله، ويحتمل أن يدل الاسم هنا على يعقوب أو على نسله بني إسرائيل.

(14) يقصد بالولي النبي داود، ومعلوم أن اليهود لا يعتبرون سليمان نبياً وإنما يعدونه ملكاً حكيماً. جاء النصّ العبري في الأصل ضمن النص وبدون ترجمة، وتسهيلاً للقارئ العربي وضعنا نحن الترجمة في النص ووضعنا النصوص العبرية في الهامش حتى لا تشوش على القارئ. ومن المعلوم أن المؤلف أورد نصوصه من التوراة أو من التلمود. وقد اعتمدنا في ترجمة النصّ التوراتي بعض مواقع الأنترنت، مثل الموسوعة المسيحية العربية الإلكترونية، والإنجيل الكتاب المقدس...مع تقويمنا لهذه الترجمات في بعض الأحيان، كما أننا أخذنا نصوص التوراة والتلمود من موقع מאגר ספרות הקודש-התנך.

(15) דור לדור, יְשַׁבַּח מַעֲשֵׂיךָ; וְגִבּוֹרֵיךָ יַגִּידוּ מִזְמִיר, إصحاح 145 للفقرة 4. ولن نذكر فيما بعد إلا أرقام الإصحاح والفقرة هكذا 4/145.

(16) י יוֹדֵךָ יְהוָה, כָּל-מַעֲשֵׂיךָ; וְחִסְדֵיךָ, יְבָרְכֶנָּה. יא כְּבוֹד מַלְכוּתְךָ יֵאֱמְרוּ; וְגִבּוֹרֶתְךָ יְדַבְּרוּ. יב לְהוֹדִיעַ, לְבְנֵי הָאָדָם--גִּבּוֹרֵתֶיךָ; וְכְבוֹד, הָדָר מַלְכוּתוֹ (نفسه 10/145-12).

في نص الطبعة "قالعلم" وهو غير مستقيم، كما أن المترجم ابن تبون ترجم كالاتي "هو العلم" 17

والآخرة كقول الولي: "هُوَ الرَّبُّ يَهَبُ الْحِكْمَةَ وَمِنْ فَمِهِ الْمَعْرِفَةُ وَالْفَهْمُ" (18).
وقال الولي: "وَالآنَ عَلِمْتُ أَنَّ الرُّوحَ فِي الْإِنْسَانِ، النَّسَمَةُ الَّتِي مِنَ الْقَدِيرِ،
تَمْنَحُهُ الْفَهْمُ" (19). وقال الولي: "وَيَهَبُ الْحِكْمَةَ لِلْحُكَمَاءِ وَالْمَعْرِفَةَ
لِلْفُهَمَاءِ" (20). وقال: "أَنَا الَّذِي يُعْطِيكَ مَا يَنْفَعُ وَيَهْدِيكَ طَرِيقًا تَسْلُكُهُ" (21).

والعلم ينقسم ثلاثة أقسام، القسم الأول العلم الطبيعي وهو علم طبائع
الأجسام وأعراضها. والقسم الثاني العلم الرياضي، وهو علم العدد وعلم الهندسة
وعلم النجوم، وعلم تأليف اللحن، وهو الموسيقى. والقسم الثالث، العلم الإلهي
وهو العلم بالله عز وجل، والعلم بكتابه وسائر المعقولات، كالنفس والعقل
والأشخاص الروحانية.

وجميع أقسام العلم على اختلاف معانيها أبواب فتحتها الله عز وجل
للناطقين لإدراك الدين والدنيا بها، إلا أن بعض العلوم أخص بالدين، وبعضها
أخص بمنافع الدنيا.

وأما التي هي أخص بمنافع الدنيا فالعلم الأدنى وهو علم طبائع الأجسام
وأعراضها. والعلم الأوسط وهو العلم الرياضي. فإن هذين العلمين دالان على
جملة أسرار هذا العالم ومنافعه ومصالحن فيه، ومرشدان إلى ضروب
الصناعات وصنوف التحيل في أسباب ضروريات الأجسام وفصول المكاسب
الدنيئة.

وأما العلم الخاص بمنافع الدين فالعلم الأعلى، وهو العلم الإلهي. فإن
طلبه لإدراك الدين به لازم علينا، وأما طلبه لإدراك منافع الدنيا به فمحظور

(18) يقصد بالولي النبي سليمان في-يهونا، يتو حكمة؛ مفيو، دعت وتبويها. (أمثال 6/2).

(19) يقصد بالولي النبي أيوب إكرو، روح-هيا بآنش؛ ونشمت شدي تبيس (أيوب 8/23).

(20) يقصد بالولي النبي دانييل إهاب حكمة؛ لحفيمو، ومنذعأ ليدعي بينا (دانييل 21/2).

(21) إني يهنا إلهيت ملمدد لحويل، مديكن بدرد تلن. (إشعيا 17/48)

علينا لقول أولياننا ⁽²²⁾ (عم) [عليهم السلام]: "أكثرُوا من حبِّ الرَّبِّ إِلَهُكُمْ وَأَسْمَعُوا كَلَامَهُ وَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَأَنْ لَا يَقُولَ امْرُؤٌ أَتَعْلَمُ لِأَدْعَا عَالِماً، أَفْسِرَ لَيْسَمُونِي حَبِراً عَظِيماً، أَتَعْمِقُ لِأَصْبِحَ شَيْخاً وَأَتَصَدَّرُ بَيْتَ عِلْمٍ، إِنَّمَا الْعِلْمُ مِنْ أَجْلِ الْمَحَبَةِ [فِي اللَّهِ]" ⁽²³⁾. وقالوا: "انجز أعمالك لذاتها، وتحدث عنها باسمها، ولا تجعلها تاجاً به تتكبر أو شاقوراً به تقطع" ⁽²⁴⁾.

وقالوا: "بشِّرْ لِمَنْ يَخَافُ الرَّبَّ وَيُسِرُّ بِوَصَايَاهُ جُداً" ⁽²⁵⁾. قال الربِّي اليعزر [مفسراً هذه الفقرة]: "[قَالُوا] 'يُسِرُّ بِوَصَايَاهُ' [ولم يقولوا] من أجل أجر وصاياه. فلا تكونوا كالعبيد الذين يخدمون السيد من أجل الأجر، بل كونا كالعبيد الذين يخدمونه دون أن يرغبوا في شيء، فغشيتهم هبة الله" ⁽²⁶⁾.

وأما الأبواب التي فتحها الله تعالى إلى علم دينه وشريعته، فثلاثة:

أحدها العقول السليمة من الآفات.

(22) يقصد بالأولياء هنا الشيوخ الذين أسهموا في تحرير موسوعة التلمود. ويتكون التلمود من قسمين، قسم بالعبرية ويسمى المشنا (الشرح) وهو عبارة عن نصوص تفسر التوراة، مع إضافة قضايا ونوازل، نقلت عن أوائل اليهود في تواتر حتى سنة 220 ب.م. وسمي الشيوخ الذين نقلت عنهم هذه النصوص "تتائيم" (شراح). وقسم يسمى الـ گَمَرَا (الإتمام)، وهو عبارة عن شروح وتعليق وقصص وروايات أضافها إلى النص الأول باللغة الآرامية، فقهاء يهود من فلسطين وبابل (العراق)، وسمي هؤلاء "أمورايم" (متحدثون)، وحرر ما بين 220 ب.م. حتى 500. والتلمود تلمودان، أحدهما يروشليمي، نسبة إلى يروشلیم (القدس). انتهى تحريره في منتصف القرن الرابع ب.م. وثانيهما بابلي انتهى تحريره ببابل حوالي 500 ب.م. وهو أضخم وأكبر.

(23) نقل المؤلف من المشنا، وهي عبرية ومن الـ گَمَرَا وهي آرامية، ونأمل أن نوفق في ترجمات النصوص الآرامية تانيا لاهבה את ה' אלהיך לשמוע בקולו ולדבקה בו שלא יאמר אדם אקרא שיקראוני חכם אשנה שיקראוני רבי אשנה שאהיה זקן ואשב בישיבה אלא למד מאהבה. (סדר נשים، מסכת נדרים דף סב، א גמרא).

(24) עשה דברים לשם פעלם ודבר בהם לשמם، ואל [אל] תעשם עטרה להתגדל בהם ולא קרדום לחתות בהם (סדר נשים، מסכת נדרים דף סב، א גמרא).

(25) אשרי איש ירא [את] ה' במצותיו חפץ מאד (מزامير 1/102). و(עבדה זר יט א).

(26) אמר ר' אלעזר במצותיו ולא בשכר מצותיו כדתנן אל תהיו כעבדים המשמשין את הרב על מנת לקבל פרס אלא היו כעבדים המשמשין את הרב שלא על מנת לקבל פרס ויהי מורא שמים (אבות א').

والباب الثاني كتاب الله الصادق الموحى به إلى الرسول (عم).

والباب الثالث الآثار المنقولة على السنة أوائلنا عن الأنبياء (عم).

وقد تقدم بشرحها رَبِّينَا سَعْدِيه نَضَر الله وَجْهه (27) بما فيه كفاية.

وأما علم الدِّين فينقسم قسمين أحدهما العلم بفرائض الجوارح، وهو العلم الظَّاهر. والثاني العلم بفرائض القلوب وهي الضمائر، وهو العلم الباطن.

وأما فرائض الجوارح فتقسم قسمين :

أحدهما فرائض يوجبها العقل ولو لم يأت بوجوبها الكتاب.

والقسم الثاني فرائض سمعية لا يوجبها العقل ولا ينفيها، كتحريم أكل "اللحم مخلوطاً بالحليب" (28) ولباس "ثوب منسوج من صوف وكتان" (29) وزراعة "التهجين" (30) وكثير مثل ذلك مما خفي عنا علل تحريمها وعلة لزوم ما لزمنا منها.

وأما فرائض القلوب، فجملة أصولها عقلية على ما سأشرحه بحول الله تعالى.

(27) ولد سَعْدِيه گُؤُون الفَيُومِي بالفَيُوم في مصر سنة 882م. وأصبح گُؤُون أي عالماً من علماء اليهود في العراق، وتوفي سنة 942م. كان نحويًا لغويًا فقيهاً مفسراً مجادلاً ومترجماً إلى اللغة العربية، وله فتاوى وأشعار دينية. من أهم مؤلفاته تفسير كتاب الخلق، والأمانات والاعتقادات.

(28) الكلمات أو العبارات التي نضعها بين وردت أصلاً بالعبرية أو الآرامية، نترجمها ونضع الأصل في الهامش. (בשר וחלב) (بَسَرٌ وَحَلَبٌ)

(29) שלא תזן (شَعَطَنَز)

(30) כלאים (كلنيم): التهجين أو تطعيم المغروسات، لتنتج نوعاً آخر مخالفاً للأصل. ورد في التوراة الكثير من تجربة سكان ما بين النهرين في الفلاحة، ويجب أن ننتبه إلى هذا النهي، لأنه هو نفسه الذي توصل إليهم العلماء اليوم، بعد اكتشافهم ما قد يتسبب فيه التهجين وتغيير الجينات.

وجملة الفرائض تنقسم إلى أمر ونهي. ولا حاجة بنا إلى بيان ذلك في فرائض الجوارح لشهرتها ووضوحها، لكنني أذكر من أمر فرائض القلوب ونواهيها ما حضرني لتكون مثالا لما لم أذكر منها وبالله عوني.

وأما الأمر من فرائض القلوب، فمنها وجوب اعتقادنا أن للعالم خالقاً [أ] ابتدأه لا من شيء. ثم إخلاص التوحيد له، وأنه ليس كمثل شيء، ثم التزامنا طاعته بقلوبنا، ثم الاستدلال عليه بطريق الاعتبار وبالمخلوقات، ثم التوكل عليه، ثم التواضع والخشوع بين يديه، ثم التزام الخوف منه، والمراقبة له، والحياء من اطلاعه على ظاهرها وضمائرها، ثم التشوق إلى رضاه، والإخلاص في العمل لوجهه، ثم المحبة في ذوي محبته تقرباً إليه، والبغضة في باغضيه، وما أشبه ذلك مما لا ظهور له على الجوارح.

وأما نواهي فرائض القلوب فمنها ضدّ جميع ما ذكرناه، ومنها الحسد والحقد والانتقام لذوي شريعتنا، كما قال الكتاب: "لا تَتَّقِمُوا وَلَا تَحْقُدُوا عَلَى أَبْنَاءِ شَعْبِكُمْ" (31)، ومنها استعمال الفكر والخطر في معاصي الله، والتشوق إليها، والعزم على تنفيذها، وما مائل ذلك مما ينطوي عليه ضمير الإنسان ولا يطلع عليه غير الخالق تعالى، كما قال: "أَنَا الرَّبُّ أَفْحَصُ نِيَّاتِ الْقُلُوبِ وَأُمْتَحِنُ مُشَاعِرَ الْبَشَرِ" (32)،

ولما كان علم فرائض الذين على ضربين أحدهما ظاهر والآخر باطن، تصفحت كتب من تقدم من أوائلنا بعد أهل الـ"تلمود" (33) الذين صنفوا في علوم الشرائع تأليف كثيرة، لأقف منها على العلم الباطن، فألفت جميع ما

(31) لا-תקם ולא-תטר-את-בני-עמך (لايون 18/19)

(32) אני יהנה חקר לב, בחן כליות: קלות לאיש בדרך, כפרי מעליו. (ירמيا 10/17)

(33) תלמוד "תלמוד".

قصّدا شرحه وببائه، لم يخل من أحد ثلاثة أغراض : أحدها شرح نصوص كتاب الله عزّ وجلّ وكتب الأنبياء (عم) ⁽³⁴⁾. وذلك على أحد وجهين. إمّا شرح لفظها ومعناها، مثل شروح "الرّبيّ سعديه" ⁽³⁵⁾ رضي الله عنه، لأكثر الكتب العبرانيّة. وإمّا شرح معاني لغتها ومجازاتها وتصاريّفها وأنحائها وضبط ألفاظها، مثل كتب ابن جناح نضاله وجهه ⁽³⁶⁾، بما فيه كفاية. وكتب أصحاب الـ"مسورت" ⁽³⁷⁾ ومن جرى مجراهم.

والضرب الثاني مختصر عيون الشّرائع، إمّا كلّها مثل كتاب "الرّبيّ حفص بن يصليح" ⁽³⁸⁾. وأمّا ما يلزمنا منها في هذا الزّمان، مثل "فتاوى الأحكام" ⁽³⁹⁾ و"الفتاوى الكبرى" ⁽⁴⁰⁾ وما ماثلها. وإما جزء من أجزائها مثل كتب سائر "الگوّنين" ⁽⁴¹⁾ في "الفتاوى" والـ"ردود" ⁽⁴²⁾ في فرائض الأجسام وعقد الأحكام.

34 ينقسم كتاب العهد العتيق إلى ثلاثة أقسام : التوراة وهي خمسة أسفار : التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية. القسم الثاني ويسمى الأنبياء، وهم يهوشوع، القضاة، صموئيل الأول والثاني، الملوك الأول والثاني، إشعيا إرمياء حزقيال هوشوع يونل عموس عوبديه يونه ميخه نحوخ حبقوق صفنيه حجابي زكرياء ملاخي. ويسمى القسم الثالث المكتوبات، وهي أخبار الأيام الأول والثواني، المزامير أيوب الأمثال روت نشيد الأناشيد الجامعة إيخة إستير دانييل عزرا نحميه. ولعله يقصد بكتاب الله، القسم الأول أي التوراة.

35 ר סעדיה.

36 ولد ابن جناح في قرطبة في آخر القرن العاشر (بين 985 و990). وهو من أكبر نحاة اليهود قاطبة، من مؤلفاته كتاب المستلحق ورسالة التنبيه وكتاب التقريب والتسهيل وكتاب التسوية. وأهم كتبه كتاب اللمع والأصول، قسمه الأول يهتم بالنحو والتركيب، وقلد فيه سيبويه. والثاني في المعجم، وهو معجم مقارن.

37 מסורות (مسوّرت) يعني هذا اللفظ : التقليد والتواتر، وسُمي بهذه التسمية للكتب مدونو التوراة والذين وضعوا تقاسيمها ونقطها.

38 ר חפץ בן צלוח. عاش حفص بن مصلح في المنتصف الثاني من القرن العاشر، ومؤلفه المشار إليه هو كتاب الشرائع. ضاع الكتاب ولم تصل منه إلا نقول في كتب من بعده.

39 הלכות פסוקות (هلّخوت پ سّقوت). من أوائل مجامع الفتاوى، وينسب لرّبي يهودني (ق8م).

40 והלכות גדולות (هلّخوت گّدلوت). وينسب للرّبي شمعون قيرا، (ق8م).

41 גאונים (گوّنين) مفردة گوّون، وكان هذا الاسم يطلق على علماء ورؤساء مدارس يهودية اسمها "متينة" كانت في بابل، ما بين القرن السادس والحادي عشر الميلاديّين.

42 שאלות ותשובות (شيلوت وتشوّثوت). وتعني "شيلوت وتشوّثوت" لغة فتاوى.

والضرب الثالث تقرير معاني الشريعة في النفس بطريق الاستدلال والرد على من خالفنا، مثل كتاب الأمانات والاعتقادات وكتاب أصول الدين (43) وكتاب الـ"مقص" (44) وما جرى مجراها. فبحثت عنها فلم أجد فيها كتاباً مخصوصاً بالعلم الباطن. فرأيت هذا العلم، أعني فرائض القلوب، مهماً غير مضبوط في كتاب يحوي أصوله، وسدى غير مزوم في تأليف يحيط بفصوله، فطال عجبني في ذلك وقلت في نفسي: "لعل هذا الصنف من الشرائع غير لازم لنا لزوم فرض، بل وجوبه من جهة الأدب والحض على السبيل الأنهج، والطريق الأرشد، وحسبه حسب النوافل التي لا نطالب بتضييعها ولا نعاقب على إغفالها. ولذلك أهمل الأوائل تقييده".

فبحثت عن فرائض القلوب من المعقول والمكتوب (التوراة) والمنقول هل تلزمنا لزوم فرض أم لا؟ فوجدتها قواعد جميع الفرائض ومتى دخلها الفساد لم يصح لنا فرض من فرائض الجوارح.

أما من المعقول بأن قلت "إن قد صح لنا أن الإنسان مؤلف من نفس وجسد، وكلاهما نعم الله قبلنا [علينا]. أحدهما ظاهر والآخر باطن، فيلزمنا لله تعالى عنهما طاعة ظاهرة وباطنة". فالظاهرة فرائض الجوارح كالصلاة والصوم والصدقة وتعلم كتاب الله والنشر له (45)، وعمل "شكوت" و"ولب" و"صيصيت" و"مزوزوت" و"معقه" (46) وما أشبه ذلك مما يتم عمله بحواس الإنسان الظاهرة.

(43) هما معا لسعديه غوزون الفيومي.

(44) מקמץ هو داود بن مروان، عاش في منتصف القرن التاسع الميلادي، وهو صاحب كتاب العشرين مقالة.

(45) هكذا في النص، والمقصود به تعليمه لليهود لا نشره في كافة الناس، لأن اليهودية تنقل بالتوارث وعن الأم، ولذلك ترجم اللفظ بن تبون بـ"تعليمها" וממדה.

(46) סככות (سكوت) عيد المظال، ويقع بين 15 و21 من شهر تشرى. وتذكر المظال بحالة الاستعجال وعدم الاستقرار التي عاشها بنو إسرائيل في صحراء التيه، ويعتقدون أن "المظال" رمز لمعجزة،

وأما الطاعة الباطنة، فهي فرائض القلوب، مثل التَّوْحِيدِ لله بالقلب والإيمان به وبكتابه، ولزوم طاعته والخوف منه والمحبة فيه والتواضع له والحياء منه والتوكُّل عليه، والاستسلام إليه، والزَّهْد فيما يكرهه، وإخلاص العمل لوجهه، والاعتبار لنعمه، وما أشبه ذلك ممَّا يَتَمَّ بالاعتقاد والضمير دون آلات الجسد الظَّاهرة منه. فعلمت علماً يقيناً أنَّ فرائض الجوارح لا تتمُّ لنا إلَّا باختيار قلوبنا لعملها وقلق نفوسنا لفعلها. فَإِنَّ تَوْهَمَنَا أَنَّ قلوبنا غير مفروض عليها الاختيار لطاعة الله، سقط عن جوارحنا لوازم فرائضها، إذ لا يتمُّ لها عمل دون اختيار نفوسنا لذلك. فلَمَّا صحَّ تكليف الخالق تعالى جوارحنا القيام بفرائضه، لم يجز أن يهمل قلوبنا ونفوسنا التي هي أشرف أجزائنا، دون تكليفها ما في طاقتها من التَّعَبُّدِ له. إذ بها تمام الطَّاعة وكمال العبادة. فوجب لذلك تكليفنا فرائض ظاهرة وفرائض باطنة، لتكون الطَّاعة تامةً كاملة، عامَّةً شاملة، لظاهرنا وباطننا لخالقها جلَّ وعزَّ.

فلَمَّا صحَّ لي وجوبها بطريق العقل، قلت : "لعلَّ كتاب الله عارٍ من هذا المعنى، ولذلك أهمل تضمينه في تأليف يرشدنا إليه، ويدلُّنا عليه".

فطلبت آثاره في كتاب الله، فألفيته مرّداً فيه كثيراً من ذلك قوله : "فأحبُّوا الرَّبَّ إِلَهُكُمْ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ وَكُلِّ نَفْسِكُمْ وَكُلِّ قُدْرَتِكُمْ، وَلَتَكُنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَنَا أَمْرُكُمْ بِهَا الْيَوْمَ فِي قُلُوبِكُمْ" (47). وقوله : "أحبُّوا الرَّبَّ إِلَهُكُمْ وَأَسْمَعُوا كَلَامَهُ وَتَمَسَّكُوا بِهِ" (48). وقوله "فأحبُّبْتُمُ الرَّبَّ إِلَهُكُمْ وَعَبَدْتُمُوهُ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ

التيه. كما أن العيد يرتبط أيضاً بنهاية جمع المحاصيل، ولذلك يسمى أيضاً חג האסוף (حَافُ هَاسُوف) عيد الجمع. ومن الطقوس أعداد أنواع معينة من النبات לולב (لولب) سفع النخيل. ولاיציות (صيصيت) هو الأهداب التي تنكلى في الجهات الأربع من وشاح صلاة اليهود. ومזוזות (مزوزة) هي اللوحة الصغيرة التي تعلق على إحدى عضادات باب منزل اليهودي، مكتوب عليها فقر من سفر التثنية. والأصل فيها أنها وضعت علامة على بيوت اليهود لتمييزها لحظة الضربة التي كانت ستحل بالمصريين. ומלקה (معه) الدرازين، أو المنع من السقوط.

(47) ה' וְהָהָבָה, אֶת יְהוָה אֱלֹהֶיךָ, בְּכָל-לִבְךָ וּבְכָל-נַפְשְׁךָ, וּבְכָל-מְאֹדְךָ. וְהָיוּ הַדְּבָרִים הָאֵלֶּה, אֲשֶׁר אֲנִי מְצַוְנֶיךָ הַיּוֹם--עַל-לִבְךָ. (تثنية 6-5/6)

(48) כ' לֹא-הָבָה אֶת-יְהוָה אֱלֹהֶיךָ, לְשִׁמְעַל בְּקִלּוֹ וּלְדַבְּקָה-בּוֹ (نفسه 20/30)

وَيَكُلُّ نَفُوسِكُمْ" (49)، وقوله : "الرَّبُّ إِلَهُكُمْ تَتَّبِعُونَ وَهُوَ الَّذِي تَرْهَبُونَ" (50) وقوله : "أَحَبُّ قَرِيبِكَ مِثْلًا تُحِبُّ نَفْسَكَ" (51) وقوله : "وَالآنَ يَا شَعْبَ إِسْرَائِيلَ، مَا الَّذِي يَطْلُبُهُ مِنْكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ إِلَّا أَنْ تَخَافَهُ" (52)، وقال : "فَاحْبِبُوا الْغَرِيبَ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ" (53). والخوف والمحبة، [كما ورد في هذه الفقر] فمن [من] فرائض القلوب.

وقال في النواهي من فرائض القلوب : "لَا تَشْتَهِ زَوْجَةَ قَرِيبِكَ، وَلَا تَشْتَهِ بَيْتَهُ وَلَا حَقْلَهُ وَلَا عَبْدَهُ وَلَا أُمَّتَهُ وَلَا ثَوْرَهُ وَلَا حِمَارَهُ، وَلَا شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ" (54) "لَا تَنْتَقِمَ وَلَا تَحْقِذْ عَلَى أَبْنَاءِ شَعْبِكَ" (55). "لَا تُبْغِضْ قَرِيبَكَ فِي قَلْبِكَ" (56)، "وَلَا تَضْلُونَ بِاتِّبَاعِ مَا قَدْ تَمِيلُ إِلَيْهِ قُلُوبُكُمْ أَوْ يَتَزَيَّنُ فِي عِيُونِكُمْ" (57) "فَلَا يَقْسُ قَلْبُكَ وَلَا تَبْخُلَ يَدُكَ" (58).

وكثير مثل ذلك. ثم ردّ جميع الطاعة إلى القلب واللسان، في قوله : "هذه الوصية التي أنا أمركم بها اليوم لا تصعب عليكم ولا هي بعيدة عنكم."

فلا هي في السماء لتقولوا من يصعد لنا إلى السماء، فيتناولها ويسمعنا إياها فنعمل بها. ولا هي في عبر هذا البحر لتقولوا من يعبر لنا هذا

(49) לאהבה את-יהנה אלהיכם, ולעבדו, בכל-לבבכם, ובכל-נפשכם (نفسه 13/11)

(50) ה אהרי יהנה אלהיכם תלכו, ואתו תיראו (نفسه 5/13).

(51) ואהבת לרעך כמוך (اللاويون 18/19).

(52) יב ועתה, ישראל--מה יהנה אלהיך, שאל מעמך: כי אם-ליראה את-יהנה אלהיך (نشية 12/10).

(53) יט ואהבתם, את-הגר: כי-גרים הייתם, בארץ מצרים. (نشية 19/10)

(54) יז ולא תחמד, אשת רעך; {ס} ולא תתאנה בית רעך, שדהו ועבדו ואמתו שורו וחסמו, וכל, אשר לרעך. (نشية 17/5).

(55) יח לא-תקם ולא-תטור את-גני עמך (اللاويون 18/19).

(56) יז לא-תשנא את-אחיך, בכלבך (نفسه 17).

(57) " ולא-תתורו אחרי לבבכם, ואחרי עיניכם (العدد 39/15).

(58) לא תאמץ את-לבבך, ולא תקפץ את-ידך (نشية 7/15).

البحر، فَيَتَأَوَّلَهَا وَيُسَمِّعُنَا يَآهَا فَتَعْمَلْ بِهَا. بَلْ هِيَ قَرِيبَةٌ مِنْكُمْ جَدًّا. فِي أَفْوَاهِكُمْ هِيَ وَفِي قُلُوبِكُمْ لَتَعْمَلُوا بِهَا" (59).

وأما كتب سائر الأنبياء، فمحتفلة به ومردّد فيها، لم أتكلّف إحضاره لكثرتّه وشهرته.

فلم

أصحّ لي لزوم فرائض القلوب من كتاب الله، كما صحّ من جهة المعقول، بحثت عنه من جهة آثار نقل أوائلنا (60) (عم)، فوجدتها أوضح وأبين في كلامهم أكثر منه في المكتوب (التّوراة) والمعقول، بعضه مجملًا مثل قولهم: "الرّحيم يختار القلب" (61) وقولهم: "القلب والعين أصل الخطايا" (62) وبعضه مفصلاً في "فصل الآباء" (63) يطول ذكره. ووجدنا كثيراً منه في أوصاف سيرهم المنقولة عند مسألتهم "بماذا أطلت في العمر؟" (64). ورأيت من جهة كتاب الله أيضاً في "مَنْ قَتَلَ نَفْسًا سَهْوًا" (65)، أنّه لا يلزمه قتل، وأنّ

(59) יא כי המצנה הזאת, אשר אנכי מצוך היום-לא-נפלות הוא ממך, ולא חסרה הוא. יב לא בשמים, הוא: לאמר, מי יעלה-לנו השמימה ויסקה לנו, וישמענו אתה, ונעשה. יג ולא מעבר לים, הוא: לאמר, מי יעבר-לנו אל-עבר הים ויסקה לנו, וישמענו אתה, ונעשה. יד כי קרוב אליך הדבר, מאד: כיך ובלבבך, לעשותו. (نفسه 14-11/30).

(60) شیوخ التلمود, ويعني أنه وجد ذلك في كتابات التلمود أكثر.

(61) רחמנא לבא בעי (רַחֲמָנָא לִבָּא בְעִי) (سنهدين קו ב)

(62) ליבא ועינא תרי סרסורי דחטאה נינהו (הברכות א ח).

(63) מסכת אבות (مسكة أبوت). تتكون المشنا التي سبق أن ألمعنا إليها في هامش سابق، من ستة أبواب هي: الزروع والأعياد والنساء والأضرار والمقدمات والطهارة، أي موضوع المشنا هو أحكام هذه القضايا، ويتضمن باب الأضرار ثمانية فصول موضوعها الأحكام والأحوال الشخصية وقضايا الشرك، ومن فصولها فصل الآباء أو الأصول، ويتناول طقوس صلوات الأيام والأعياد والمناسبات، وهو عبارة عن أقوال وآثار شیوخ بني إسرائيل طوال عهود، وإليه يشير المؤلف.

(64) 'במה הארכת ימים?' ورد في كثير من نصوص التلمود جواب هذا السؤال على أفواه شیوخ التلمود مثل ما ورد في باب الأعياد فصل الصيام (כ"ב جمרא) وفصل لفيفة إسترير מגלה כ"ב ב جمרא). وفيه يذكرون أعمالهم الحسنة التي بها أطال الله عمرهم.

(65) מכה-נקש בשקנה. (العدد 11/35).

من أتى ساهياً شيئاً من "وصايا النّواهي" (66) التي يلزمنا عليها أحد "أنواع القتل الأربعة" (67) أو "الاحتراز" (68)، لا يلزمه عنها إلا "الكفارة" أو "تقديم قربان" (69)، فدلّلنا ذلك أنّ المعتمد عليه في وجوب العقوبة هو اشتراك القلب والجسم في العمل. أمّا القلب فبالقصد وأمّا الجسم فبحركته للعمل. وكذلك في من يأتي بحسنة من غير قصد وجه الله فيها أنّه غير مثاب عنها. فإذا كان قطب العمل وعماده مبنياً على مقصد القلوب والضمائر، وجب أن يكون علم فرائض القلوب أسبق وأقدم بالطبع لعلم فرائض الجوارح.

فلما صحّ لي وجوب العلم الباطن من المعقول والمكتوب والمنقول، قلت: "لعلّ هذا الصّنف من الفرض غير لازم لنا في كلّ زمان وفي كلّ مكان، مثل "سنة الإبراء" (70) و"سنة الخمسين" (71) وشرائع القرايين التي لا تلزمنا في كلّ زمان وكلّ مكان". فلما تصفحتها رأيتها لازمة لنا دائماً طول مدتنا، لا فترة فيها [معفاة] ولا عذر لنا عنها، مثل التزام توحيد الله بالقلب، والتمام الطاعة له بالضمير، والخوف منه، والمحبة له، والتشوف إلى عمل الفرائض اللازمة، كقول الولي (عم): "لَيْتَ طُرُقِي تُثَبَّتْ فِي حِفْظِ فَرَائِضِكَ" (72). والتوكل

(66) מצות אל תעשה.

(67) ארבע מיתות كانت المحاكم اليهودية القديمة تصدر أحكام الموت بوحدة من أربع هي الرجم أو الحرق أو القتل أو الخنق .

(68) כרת. (كرت).

(69) חטאת או אשם (خطاة) (أشم)

(70) שמטה (شمطه) سنة الإبراء هي السنة السابعة حسب الشريعة اليهودية، وفيها تترك الأرض بدون زرع لتستريح.

(71) جاء في سفر اللاويين، الإصحاح 25 (الفقرة العاشرة وما بعد): "وَتُكْرَسُونَ لِي سَنَةَ الْخَمْسِينَ وتنادون بتحريير أهل الأرض كلها، فتكون لكم يوبيلا وترجعوا، كل واحد منكم إلى ملكه وإلى عشيرته.

لا تزرعوا فيها ولا تحصدوا الحصيد النابت من تلقاء ذاته، ولا تقطفوا عنب كرومكم غير المقضوبة....".

(72) אחלי יכונן דרכי לשמור חוקיך (مزامير 5/119).

عليه، والاستسلام إليه، كما قال : "عَوَّلُوا عَلَيْهِ كُلَّ حِينٍ" (73). ونفي الحسد والحق من قلوبنا، والزهد في فضول الدنيا الشاغلة عن الطاعة لله عزّ وجلّ، فإنّ جميع ذلك يلزمنا في كلّ زمان وفي كلّ مكان، وجوباً دائماً متواتراً، مع الساعات والدقائق، وعلى كلّ حال، مدّة ثبات عقولنا وتواتر أنفسنا.

والمثال لذلك عبد ألزمه مولاه ضربين من العمل : أحدهما داخل منزله في بيته، والثاني خارج منزله، مثل فلاحه الأرض والنظر فيها، في أوقات معلومة وضياح محدودة، فإذا جاز أوان ذلك، أو تعذر عليه العمل في الأرض، سقط عنه فرض العمل خارج منزله. وأما العمل الذي ألزمه في منزله، فليس يسقط عنه طول مدة سكناه فيه وعبوديّته لمولاه، إذ لا يمنعه عنه مانع، ولا يشغله عنه شاغل، وفرض العمل له لازم إذا خلا بنفسه دائماً. وكذلك فرائض القلوب يا أخي، علينا لازمة، ولا عذر لنا فيها، ولا شغل عنها، إلّا حب الدنيا والجهل بالله جلّ وعزّ، كقوله : "وَلَا مُمْهَمُ الْكِنَّارَةُ وَالْعُودُ وَالذُّفُّ وَالْمِزْمَارُ، وَالْخَمْرُ شَرَابُهُمْ. لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى عَمَلِ الرَّبِّ وَلَا يَتَأَمَّلُونَ مَا صَنَعَتْ يَدَا" (74).

فقلت : "لعلّ هذا الصّنف من الفرض لا يتفرّع إلى لوازم كثيرة عددها، ولذلك اختصر شرحها وأهمّل تقييدها في كتاب يخصّها"، فلما أخذت في تعديدها [تعدادها] وتفصيلها وجدتها كثيرة جداً عند تفريعها، حتّى توهمت أنّ قول الولي (عم) : "كُلُّ كَمَالٍ رَأَيْتُ حَدًّا، أَمَّا وَصِيَّتُكَ فَلَا حَدَّ لَهَا" (75). أراد به فرائض القلوب. إذ فرائض الجوارح محصورة العدد نحو "613" (76) شريعة. وأمّا فرائض القلوب فكثيرة جداً لا تنتهي فروعها، فقلت : "لعلّها من البيان والوضوح ولزوم الناس عليها بحيث لا تدعو الضرورة إلى ضبطها". فتأمّلت

(73) ט בְּטָחוּ בּוֹ בְּכָל-עֵת.

(74) יב וְהָיָה כְּנוֹר וְנִיבָל, תִּי וְחִלְלִי וְיִי--מִשְׁתִּיחָם; וְאֵת פֶּלַע יְהוָה לֹא יַבִּיטוּ, וּמַעֲשֵׂה יְדֵיו לֹא יֵאוּ. (إشعياء 12/5)

(75) צו לְכָל-תְּפִלָּה, כְּאֵימִי קָדֹ; רְחֵקָה מִצְוֹתַי מֵאֵד.

(76) وردت في الأصل بحساب الحمل تریگ (تريگ) وهي عدد الفرائض الدينية في اليهودية.

سير الناس في أكثر الأعصار الموصوفة في الكتب، فوجدتها بعيدة من هذا الصنف من الفرائض غير الخواصّ منهم، على ما نقل إلينا عنهم. وأمّا العوامّ فما أحوجهم إلى التنبية عليها والإرشاد إليها، ولا سيما عوام أهل زماننا هذا، الذين أهملوا العلم والعمل لأكثر فرائض الجوارح، فضلاً عن فرائض القلوب. ومن كانت له منهم همّة إلى النظر في علم الشريعة، إنّما يقصد منه إلى ما يتسمى به عند العامة باسم العلم، ويتفق [منه؟] عند من يتشبه بالخاصّة بالمعرفة، فيميل من علم كتاب الشريعة إلى ما لا يكسبه فضيلة ولا يستنقي (77) بها من رذيلة في نفسه، ولو جهله لم يطالب عنه. وأغفل النظر في أصول دينه وأقطاب شريعته التي لا يسعه جهلها وغفلتها، ولا يصحّ منه فرض دون علمها وعملها، مثل التحقق بالتوحيد هل يلزمنا النظر فيه بعقولنا أم تقوم عنا الحجة إذا تحققناه من جهة التقليد، فنقول: "ربّنا واحد"، كما تقول العامة بغير دليل وبرهان؟ وهل يلزمنا البحث عن معنى الواحد الحقيقي والواحد المجازي، فينفصل عندنا هذا المعنى من سائر الأحاد الموجودين أم لا؟ وهذا ممّا لا يسع المؤمن جهله، وعليه حتّ الكتاب بقوله: "فَاعْلَمُوا الْآنَ وَرَدُّوا فِي قُلُوبِكُمْ أَنَّ الرَّبَّ هُوَ إِلَهُ فِي السَّمَاءِ" (78).

وكذلك سائر فرائض القلوب التي تقدّم ذكرنا لها وما نستأنف شرحه منها، التي لا يتمّ إيمان المؤمن دون علمها وعملها، وهو العلم الباطن الذي هو نور القلوب وضياء النفوس وإليه أشار بقوله: "أَحْبَبْتَ الْحَقَّ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ وَعَلَّمْتَنِي الْحِكْمَةَ فِي الْخَفِيَّةِ" (79).

وقيل عن بعض العلماء أنّه كان يجلس للناس إلى نصف النهار، فإذا خلا بأصحابه قال: "هاتوا النور الباطن، يريد علم فرائض القلوب".

(77) هكذا والمراد ولا يتطهر، من النقاء.

(78) לֹא נִדְעָתָ הַיּוֹם, וְהַשְׁבַּת אֶל-לִבְךָ, כִּי יִהְיֶה הוּא הָאֱלֹהִים (تثنية 39/4).

(79) ה-הו-אמת, חפצת בטחות; וקשתם, חכמה תודיעני. (مزامير 8/51).

وسئل بعض العلماء عن مسألة شاذّة من أحكام الطّلاق، فجاوب سائله :
 "أيّها السّائل عمّا لا يضرّه جهله، هل أحكمت من علم فرائضك جميع ما لم
 يسعك جهله ولا يجوز لك إغفاله، حتّى تفرّغت إلى أطراف النّظر في شواذ
 المسائل ومشكلاتها التي لا تكتسب بعملها فضيلة في دينك وإيمانك، ولا
 تستصلح بها رذيلة من أخلاق نفسك ؟. وأمّا أنا فأقسم أنّي التزمت النّظر فيما
 يخصّني في نفسي من فرائض ديني منذ خمسة وثلاثين عاما، وفي علمك
 اجتهدني وتمكّن الكتب منّي، ولم أفرغ بعد إلى ما تفرّغت [إلى] السّؤال عنه".
 وطول في ذلك بتوبيخ شديد، وتقرّيع بالغ.

وقال آخر : "تعلّمت تصحيح العمل خمسة وعشرين عاما" (80).

وقال آخر : "من العلم ما هو مدفون في صدور العلماء، كالشيء
 المكنوز المستور، فإذا أخفي لم يدركه أحد، وإذا أظهره لم يخف عن أحد
 صدقهم فيه". وهذا نظير قول الحكيم (81) : "المشورة في قلب الإنسان ماءٌ
 عميق وذو الفطنة يستقيها" (82). يريد أنّ العلم مركز ومكنون في غريزة كلّ
 إنسان وفي قوة تميّزه، كالماء المخفي في عمق الأرض. والفهم العاقل يروم
 البحث عمّا في قوّته وفي باطنه من العلم، حتّى يكشف عنه ويظهره ويستقيه من
 نفسه، كما يبحث عن الماء الذي في عمق الأرض.

ولقد سألت بعض من يدعي علم الشريعة عن بعض ما ذكرت لك من
 العلم الباطن فقال : "إنّ التقليد يسدّ مسدّ النّظر فيما أشبه هذا"، فقلت له : "إنّما
 يصحّ ما ذكرت لمن ضعف عن النّظر لقلة تمييزه، و[عدم؟] بعد فهمه، مثل
 النساء والصبيان وضعفاء العقول من الرجال، وأمّا من كان في قوّة عقله

(80) يريد أن أمر دينه لم يستقم له إلا بعد هذه السنين.

(81) يقصد سليمان النبي.

(82) ה מים עמוקים, עצה בלב-איש; ואיש תבונה ידלנה. (أمثال 5/20).

وتمييزه الوقوف على صحة ما نقل إليه، وأقعه عن النظر فيه بعقله، الكسل والتهاون بأمر الله وشريعته، فهو مطلوب عن ذلك وملوم على غفلته عنه".

ومثال ذلك عبد ألزمه ملك قبض مال من رعيته، وأمره بنقده ووزنه واختزانه، وكان بصيراً بما كلفه وحاذقاً بما ألزمه من النقد والوزن، فلفطوا به الرعية حتى أنس إليهم وأحضره المال وزعموا أنه تام العدد، صحيح الوزن منتقد، فأنس إلى قولهم، وقدّهم أمر المال، وكسل عن الوقوف على صحة دعاويهم [دعواهم]، وتهاون بأمر [في أمر] الملك، فاتصل ذلك بالملك، فلما أحضر المال بين يديه، سألته عن صحة وزنه، وكمية عدده وانتقاده، فحار في جوابه عن ذلك، واستوجب العقاب عنده، وإن كان المال على ما زعم القوم، لاستخفافه بأمر مولاه، وركونه إلى دعوى يمكنه الوقوف على صحتها. ولو كان جاهلاً بالنقد والوزن، لم يستوجب العقاب على ما قلّد الرعية في دعواهم من صحة وزن المال ونقده.

وأنت يا أخي لو كان الأمر المطلوب تصحيحه بطريق العقل منك متعذراً عن الإدراك، مثل علل الشرائع السمعية، لقام عذرك، وظهرت حجّتك في التواني عن البحث له، وكذلك أيضاً لو كنت من ضعف العقل وقلة التمييز، بحيث ينبو فهمك ويقصر علمك عن إدراكه، لم تطالب بتضييعك له، فكان وسعك فيه وسع النساء والصبيان الذين يحملونه تقليداً. وأمّا إذا كنت ذا فهم وعقل يمكنك بهما إدراك صحة ما نقلت الآثار إليك عن الأنبياء (عم)، من أصول الدين وأقطاب الأعمال، فأنت مأمور باستعمالها ليصحّ ذلك عندك بطريق النقل وطريق العقل. وإن غفلت كنت في منزلة المقصر فيما يلزم الله جلّ وعزّ. ويتبين ذلك من وجهين :

أحدهما قول الكتاب : "إِذَا أَعْجَزْتَكَ قَضِيَّةٌ فِي الْقَضَاءِ بَيْنَ دَمٍ وَدَمٍ، أَوْ دَعْوَى وَدَعْوَى، أَوْ ضَرْبَةٍ وَضَرْبَةٍ، مِنْ قَضَايَا الْخُصُومَاتِ فِي مَذْنِكَ، فَقُمْ وَاصْغُرْ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي اخْتَارَهُ الرَّبُّ إِلَيْكَ، وَاهْبِ إِلَى الْكَهْنَةِ الْأَوَّلِيِّينَ وَإِلَى

القاضي الذي يكون في تلك الأيام، فتستشير ويبلغونك قرار الحكم. واعمل بحسب القرار الذي يبلغونك إياه في الموضع الذي يختاره الرب، وتنبه أن تعمل بكل ما أوصوك به، بحسب القرار الذي يوجهونه إليك" (83).

إذا تأملت ما تتضمنه "الفقرة=الآية" (84) الأولى من معاني الأحكام، تجدها مسائل تحتاج إلى تفصيل وتحديد بطريق النقل لا بطريق الاستدلال العقلي. ألا ترى أنه لم يذكر في جملتها معنى من المعاني التي تدرك بالعقل. فإنه لم يقل: "إذا شككت في أمر التوحيد كيف هو"، وفي أسماء الخلق وصفاته، وفي أصل من أصول الدين، مثل التزام الطاعة لله والتوكل عليه والتواضع لديه والإخلاص في العمل لوجهه وتصحيح الحسنيات من آفات الفساد، وضروب التوبة من المعاصي، والخوف لله، والمحبة فيه، والحياء منه ومحاسبة النفس لوجهه، وما أشبه ذلك مما يدرك بالتمييز والعقل. فقلّد شيوخ حملة الدين فيها، واستند إلى آثار نقلهم لها فقط. وإنما قال: "ارجع إلى فهمك واستعمل عقلك، فيما أشبه هذا بعد وقوفك عليها من جهة النقل العام لجملة شرائع الدين وأصوله وفصوله. وابتحث عنها بعقلك وفهمك وحسن قياسك، حتى يصح لك الصحيح، ويبطل الباطل، كقول الرسول (85) (عم): "فأعلموا الآن ورددوا في قلوبكم أن الرب هو الإله في السماء من فوق وفي الأرض

(83) כי יולא ממך דבר למשפט. בין-דם לדם בין-דין לדין ובין נגע לנגע--דברי ריבית. בשעריך: נקמת ועלית--אל-המקום. אשר יבחר יהנה אלהיך בו. ו ובאת. אל-הכהנים הלויים. ואל-השפט. אשר יהיה בימים ההם; ונרשת והגידו לך. את דבר המשפט. ועשית. על-פי הדבר אשר יגידו לך. מן-המקום ההוא. אשר יבחר יהנה; ושמרת לעשות. ככל אשר יורוד. על-פי התורה אשר יורוד. ועל-המשפט אשר יאמרו לך--תעשה: לא תסור. מן-הדבר אשר יגידו לך--בין ושמאל. והאיש אשר יעשה בצדו. לבדתי שמע אל-הכהן העמד לשכת שם את-יהנה אלהיך. או. אל-השפט--ומת האיש ההוא. ובערת הרע מישראל. תשיח. 8/17-10).

(84) דסוק (پسوق).

(85) المقصود بالرسول موسى عليه السلام.

من أسفل، ولا إله سواها" (86). وكذلك القول في كل ما يدرك بالعقل صحته، على ما علمت من قول أوائلنا (عم) : "كل ما كان عاماً وشذ عن العموم ليعلم، لم يعلم لذاته وإنما شذ ليعلم على العموم كله" (87)، لأن علم معنى التوحيد لله (تع) فرع من جملة المعقولات. فما لزمه لزم الجملة.

والوجه الثاني قول الكتاب : "أما علمت ؟ أما سمعت أن الرب إله سرمدى خلق الأرض بكاملها. لا يتعب ولا يكل أبداً وفهمه يعصى على الإدراك ؟" (88). أراد بقوله "أما علمت ؟" علم الاستدلال، وبقوله "أما سمعت" طريق النقل والتقليد. ومثله قوله : "أما علمتم ولا سمعتم ؟ أما بلغكم كيف كان البدء وفهمتم من أسس الكون ؟" (89). قدم علم الاستدلال على علم الخبر والنقل.

ومثله قول الرسول أيضاً : "بهذا تعترف بجميل الرب أيها الشعب الأحمق الجاهل ؟ أما هو أبوك الذي خلقك، الذي أبدعك وكونك ؟ أذكر الأيام القديمة وتأمل الأجيال السالفة. سل آبائك فيخبروك وشيوخك فيحدثوك" (90).

فبدل ذلك على ما ذكرنا أن النقل وإن كان أقدم بالطبع من طريق ضرورة المتعلمين وحاجتهم إليه أولاً، ليس من الحزم أن يقنع به ويركن إليه فقط، من يمكنه علم صحته بطريق الاستدلال عن الواجب النظر، في ما يدرك بطريق العقل والاستدلال عليه بالبرهان القياسي لمن أمكنه ذلك.

(86) לו וידעת היום, והשבת אל-לביך, כי יהנה הוא האלהים, בשמים ממעל ועל-הארץ מתחת: אין, עוד. (نشية 39/4).

(87) כל שהיה בכלל ויצא מן הכלל ללמד. לא ללמד על עצמו יצא אלא ללמד על הכלל כולו יצא (יבמות 2 א).

(88) כח הלווה ידעת אם-לא שמעת, אלהי עולם יהנה בורא קצות הארץ--לא ייעף, ולא ייגע. (إشعيا 28/40).

(89) כח הלווה תדעו הלווה תשמעו, הלווה הגד מראש לכם. (إشعيا 21/40).

(90) ה ליהנה, תגמלו- זאת עם נבל, ולא חכם הלווה- הוא אביך קנך, הוא עשך ויכניך; זכר זמות עולם, בינו שנות דר-דר; שאל אביך ונכדך, זקניך ויאמרו לך. (نشية 6/32-7).

قال المؤلف : فلما وقفت على وجوب فرائض القلوب علينا ممّا ذكرنا، ورأيتها مهملة غير مضمّنة في كتاب يخصها، وتبيّنت ما عليه أكثر أهل عصرنا من التّقصير عن علمها، فضلاً عن عملها وامثالها. وكان من جميل صنع الله جلّ وعزّ لي، ولطفه بي، تنبيهي على الحثّ عن العلم الباطن، تصفحت آثار السلف الصّالح من أوائلنا، وأُفيت فيما نقل إلينا عنهم أنّ عنايتهم بالفرائض اللّازمة لهم في خاصّة أنفسهم، كانت أوكد وأشدّ منها في فروع الأحكام وشواذّ المسائل المشكّلة، وأنّ اجتهادهم كان في جمل الأحكام، وعقد الحلال والحرام، ثمّ كانوا يصرفون نظرهم وعنايتهم إلى تصحيح أعمالهم وفرائض قلوبهم، فكان متى وقعت مسألة من فروع الأحكام وشواذها، نظروا فيها عند ذلك بقياسهم، واستنبطوا حكمها من الأصول المحفوظة عندهم، ولا يشغلون خواطرهم بالنظر فيها قبل ذلك، تهاوناً بالدنيا وأسبابها، فكانوا إذا دعيتهم الضّرورة إلى تنفيذ الحكم فيها، إن كان حكمها بيناً واضحاً في أصولهم المنقولة عن الأنبياء (عم) أنفذوا الحكم فيها على حسب ذلك، وإن كانت المسألة من الفروع التي يستنبط حكمها من أصول نقلهم، استعملوا رأيهم وقياسهم فيها، فإن اتّفق جميع رؤساء العلم في حكمها، نفذ عن أمرهم، وإن اختلفت قياساتهم في حكمها، أخذ في ذلك برأي العدد الأكثر منهم، وذلك لقولهم عن الـ"سندهرين" (91) : "إذا استفتي في أمر، فإذا اتّفق رأي العلماء فيه فالأمر واضح، وإن اختلفوا يكون الترجيح لحكم الأغلبية، فإذا غلب عدد المجيزين أجازوا وإذا غلب عدد المحرمين حرّموا، وتصبح قاعدة حكمهم أفراداً وجماعة شريعة" (92) ومن أصولهم "حكم الآحاد والجماعة كحكم الجماعة" (93) ثم أثبتوا

(91) السندهرين أصل الكلمة إغريقي Snédria وتعني الجماعة ثم أطلقت على المحكمة العليا اليهودية في القرن الأول الميلادي. وكانت تتألف من 81 علماً من كبار أحبار اليهود، وكانوا ينظرون في القضايا اليهودية الكبرى السياسية والقضائية. وسمي فصل من فصول التلمود بهذا الاسم لأنه ينظر في قضايا المحاكم الشرعية اليهودية.

(92) نساله سאלه לפניهم، אם שמעו אמרו להם، ואם לאו עומדים למניין. רבו המטהרין טיהרו. רבו המטמאים טימאו ומעיקר שבידם: יחיד ורבים הלכה כרבים. (סנהדרין פח ב).

(93) יחיד ורבים הלכה כרבים.

في "فصل الآباء" (94) آدابهم ودقائق أخلاقهم المأثورة عنهم، كل واحد في زمانه ومكانه. وذكر أهل التلمود (95) أيضاً عن سلفهم الصالح، ما يدل على إيجاز علمهم، وعلى شدة عنايتهم بتصحيح أعمالهم، وذلك قولهم : "كانوا [علماء التلمود] على عهد الرب (96) يهودا، لا يدرسون إلا الشريعة (الأحوال الشخصية)، وندرس نحن أشياء أخرى كثيرة [دون أن نفيد]، وقد كان يكفي أن يخلع الرب يهودا نعليه، ليتساقط المطر. نصوم نحن على قدر ما نستطيع، ويبقى نظرنا محدودا، [وهم غير ذلك] لأنهم هم أخلصوا أنفسهم للرب ونحن لم نفعل" (97).

وقالوا : "قال الرب : من شغل نفسه بالتوراة دون غيرها، كمن لا رب له، فقد قيل [في التوراة] (98) : وسيكون بنو إسرائيل زمناً طويلاً بلا إله حق، وبلا كاهن معلم... إلا أن يخلصوا نفوسهم للتوراة والإحسان" (99).

فتيقنت أن أصول الأعمال المبتغى بها وجه الله جل وعز، موضوعة على خلوص القلوب وصفاء الضمائر، ومتى فسدت النيات لم يتقبل الله الأعمال، وإن كثرت وتواترت كما قال الكتاب : "...وإن أكثرتم من الدعاء لا أستمع لكم، لأن أيديكم مملوءة من الدماء. فاغسلوا وتطهروا وأزيلوا شر

(94) מסכת אבות فصل מן פסול התלמוד.

(95) תלמוד.

(96) لفظ آرامي يعني العظيم، ويطلق هذا الاسم على بعض شيوخ التلمود، كالرب يهودا.

(97) בשני דרב יהודה، כוליה תנויי בניזקין הוה، ואנן קא מתנינן טובא ואילו רב יהודה כד הוה שליף מסאניה הוה אתי מטרא، ואנן אילו מענינן ואזלינן ומענינן - ליכא מאן דמשגח בן. אמרי ליה: קמאי הוו מסרי נפשייהו על קדושת השם. אנן לא מסרינן נפשין על קדושת השם. (תענית כד، א)

(98) أخبار الأيام الثاني، 3/15.

(99) אמר רב הונא. כל העוסק בתורה בלבד، דומה כמי שאין לו אלוה. שנאמר (ד"ה ב טו) וימים רבים לישראל ללא אלוהי אמת. אלא - בתורה וגמילות חסדים.

(עבודה זרה יז، ב).

אֲעֲמַלְכֶם מִן אִמָּם עֵינַי וְכִפּוּאוֹ עַן הַשָּׂעָה" (100). וְקָל : "בֵּל הִיא קְרִיבָה [הַשְּׂרִיעָה] מִנְּכֶם גְּדוֹ. בִּי אֲפֹאֲהֶם הִיא וּבִי לְעֹמְלֹא בִּיהָ" (101). וְקָל : "אֲעֲלֵנִי לְבָבְךָ יָא אֲבִנִי, וְלִיִּתְבָּע נֶזֶר עֵינֶיךָ מִסַּלְכִי" (102).

וְקָל אֲוַלְלָנוּ בִּי זֶלֶק (ירושלמי ברכות א) : אִי יִהְיֶה לִי לְבָב וְעֵינַיךְ אֲנִי יִדְעָה דָּאֵת דִּילִי. וְקָל הַכְּתָב : "וְלֹא תִצְלִיחוּ בִּתְבָאֵם מָה קָד יִכּוֹן בִּי לְעֹמְלֶיךָ וְעֵינֶיךָ" (103) וְקָל : "בְּמָדָא אֲתִקְדֵּם אֶל הָרֶבֶת וְאִכְאִי אֱלֹהֵי הָעֹלָם?" פְּקָן הַיָּבֹב : "מָה הוּא שָׂלֵחַ וְמָה אֲטָלֵב מִנְּךָ אֲנִי הָרֶבֶת : אֲנִי תִשְׁנַע לְעֹדֶל וְתִחַב הָרַחֲמָה וְתִסְיֵר בְּתוֹאֲשֵׁי מַעַל הֵלֶךְ" (104). וְקָל : "בֵּל מִן יִפְתָּחֵר פְּלִיפְתָּחֵר בִּמְעִרְתִּי וְיִפְהֶם אֲנִי אֲנִי הָרֶבֶת מִסְדֵּר הָרַחֲמָה וְהַחֲכָמָה וְהָעֹדֶל בִּי הָאָרֶץ. בִּמְשָׁל הוּלָאֵר אֲרֻצִּי יִקְוֹל הָרֶבֶת" (105).

וְשֵׁר מַעֲנִי זֶה הַיָּבֹב, "בֵּל יִפְתָּחֵר הַמִּפְתָּח בַּלְּפִהִם עֵנִי, וְהַתְמִיז עַן הַפְּלִי וְהַחֲסָאֵת", בַּלְּעִתָּבָר בַּמִּחְלֻקִּין, וְהַסְתַּל "בַּאֲפְעָלִי עַל קִדְרֵתִי וְחִכְמֵתִי".

וְכִמְעַם מָה חֲבִיב מִן הַ"פְּקָרָת=הָאֵיִת" (106), דְּלִיִּל עַל תְּאִיד לְזוּמ פְּרִאֲשׁ הַלְּבָב וְאִדָּב הַנְּפֹשׁ. וְיִנְבְּעִי אֲנִי תִעֲלֵם אֲנִי הַקִּשְׁד וְהַמִּנְפַּע בִּי פְּרִאֲשׁ הַלְּבָב הֵמָּה מוֹאֲזֵנָה הַזָּהָר וְהַבָּאֲטָן מִנָּה, וְתִעֲדָלְהֶמָּה בִּי הַטָּעָה לֵאלֹהֵי גֵל וְעִזָּה,

100) גַּם בִּי-תִרְבּוּ תִפְלָה, אִינְיִי שְׁמַע: קְדִיכֶם, דְּמִים מְלֹא. טוֹ רַחֲמֵי, הַזְכּוֹ--הַסִּירוֹ רַע מַעֲלִיכֶם, מִנְּגֵד עֵינִי: חֲדָלוּ, הָרַע. (אִשְׁעִיָּא 17-16/1).

101) יָד בִּי-קָרֹב אֶלֶיךָ הַדָּבָר, מֵאִד: בְּפִיךָ וּבִלְבָבְךָ, לְעִשְׁתּוֹ. (תְּשִׁיָּה 14/30).

102) כּוֹ תִהְיֶה-בְּנִי לְבָד לִי: וְעֵינֶיךָ, דְּרַכִּי תִרְצֵנָה (תְּצַלְחָנָה) (אִמְתָּל 26/23).

103) וְלֹא-תִתְּנוּ אֲחֵרֵי לְבָבְכֶם, וְאֲחֵרֵי עֵינֵיכֶם (אֲעֵדָה 39/15).

104) בְּמָה אֲסַדֵּם יְהוָה, אִפְךָ לֵאלֹהֵי מְרוֹם הַגִּיד לְךָ אָדָם, מִח-טוֹב; וּמָה-יְהוָה דּוֹרֵשׁ מִמֶּנִּי, בִּי אִם-עֲשׂוֹת מִשְׁפָּט וְהַקְּבִיחַ חֶסֶד, וְהַצִּנֵּעַ לָכֶת, עִם-אֱלֹהֵיךָ. (מִיכָא 6/6 וְ8).

105) בִּי אִם-בְּזֹאת תִּתְּחַלֵּל הַמִּתְחַלֵּל, הַשְּׁפֵל וְהַגִּיד אֹתִי--בִּי אֲנִי יְהוָה, עֲשֵׂה חֶסֶד מִשְׁפָּט וְצִדִּיקָה בְּאֶרֶץ: בִּי-בְּאֵלָה חִפְצִי, בְּאִם-יְהוָה. (אִרְמִיָּה 23/9).

106) פְּסוּקִים (בְּסוּקִים).

حَتَّى تَسْتَوِي شَهَادَةَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ بِالْعِبُودِيَةِ لِلَّهِ، وَيَصْدَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَاحِبِهِ، وَيَشْهَدَ لَهُ بِذَلِكَ وَلَا يَخَالِفُهُ وَلَا يَنَاقِضُهُ وَهُوَ الَّذِي يَسْمِيهِ الْكِتَابُ "كَامِلِينَ" (107) نَحْوَ قَوْلِهِ : "كُونُوا كَامِلِينَ عِنْدَ الرَّبِّ إِلَهُكُمْ" (108). وَقَالَ : "كَانَ كَامِلًا [تُوح] فِي زَمَانِهِ" (109). وَقَالَ : "يَسْلُكُ بِنِزَاهَةٍ وَيَصْدُقُ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ. يَتَكَلَّمُ بِالْحَقِّ فِي قَلْبِهِ" (110) وَقَالَ : "أَتَقَدَّمُ فِي سَبِيلِ الْكَامِلِينَ فَمَتَى تَأْتِي إِلَيَّ؟ فِي كَمَالِ قَلْبِي أَسِيرُ فِي وَسْطِ بَيْتِي" (111).

وقال الكتاب في من خالف ظاهره باطنه : "فَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ مُخْلِصًا لِلرَّبِّ إِلَهِهِ" (112).

وقال : "فَخَادَعُوهُ بِأَفْوَاهِهِمْ وَبِالْسِّنَتِمْ كَذَبُوا عَلَيْهِ، أَمَا قُلُوبُهُمْ فَلَمْ تَكُنْ مُسْتَقِيمَةً مَعَهُ، وَلَا أَوْفُوا بِعَهْدِهِ" (113).

ومن المعلوم أَنَّ كُلَّ مَنْ خَالَفَ بَعْضُهُ بَعْضًا وَكَذَبَ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ فَغَيْرُ مَوْثُوقٍ بِصَدَقِهِ، وَلَا تَأْنَسُ النَّفُوسُ إِلَى صِحَّتِهِ. وَكَذَلِكَ إِذَا خَالَفَ ظَاهِرُنَا بَاطِنُنَا وَاعْتَقَادُنَا لِقَوْلُنَا، وَحَرَكَاتُ جَوَارِحِنَا لَضَمِيرِنَا، لَمْ تَتَمَّ مِنَّا طَاعَةُ لِبَارِينَا جَلٍّ وَعِزٍّ. إِذْ لَيْسَ يَتَقَبَّلُ مِنَّا عِبَادَةٌ مَغْشُوشَةٌ، وَلَا طَاعَةٌ مَزِيغَةٌ، كَقَوْلِهِ : "لَا أُطِيقُهَا [التَّقَدُّمَاتِ] إِنَّمَا هِيَ إِثْمٌ وَاحْتِفَالٌ" (114). وَقَالَ : "لَأَنِّي أَنَا الرَّبُّ مُحِبُّ

(107) تَمِيمِمْ (تَمِيمِمْ).

(108) تَمِيمِمْ تَهِيحِ، عَمِ تَهِيحِ تَهِيحِ (تَشِيحِ 13/18).

(109) تَمِيمِمْ تَهِيحِ، تَدَرْتِي (تَكُونِ 9/6).

(110) هَوَلِجِ تَمِيمِمْ، وَفَعَلِ تَدَقِ؛ تَدَبَّرِ تَمِيمِمْ، تَدَبَّرِ. (مَزَامِيرِ 2/15).

(111) وَلَا-تَهِيحِ تَدَبَّرِ سَلَمِمْ عَمِ-تَهِيحِ تَهِيحِ (مَلُوكِ أَوَّلِ 4/11).

(112) نِيْفَتَوِيحِ تَدَبَّرِمْ وَتَدَبَّرِمْ تَدَبَّرِمْ-لَوِ تَدَبَّرِمْ-لَا-تَدَبَّرِمْ عَمِمْ وَلَا تَدَبَّرِمْ تَدَبَّرِمْ. (مَزَامِيرِ 36-37/78).

(113) لَا-أَوَكَلِ تَدَبَّرِمْ وَتَدَبَّرِمْ (إِشْعِيَاءِ 13/1).

(114) كِي تَدَبَّرِمْ تَدَبَّرِمْ أَهَبِمْ مَشْفُوتِمْ، شَيَاحِ تَدَبَّرِمْ تَدَبَّرِمْ (إِشْعِيَاءِ 8/61).

ومن أجل ذلك تكون حسنة واحدة تعدل جملة حسنات حسب القصد والنية، وكذلك السيئة تعدل جملة سيئات. وقد تكون الفكرة في الحسنة والتشوف إلى عملها من العارف بالله - وإن لم يمكنه تنفيذ العمل لها- تعدل حسنات كثيرة من غيره، كما قال الله تعالى لداود: "مَنْ أَجَلَ أَنَّهُ كَانَ فِي قَلْبِكَ أَنْ تَبْنِيَ بَيْتًا لِاسْمِي قَدْ أَحْسَنْتَ بِكَوْنِ ذَلِكَ فِي قَلْبِكَ" ⁽¹¹⁸⁾. وقال: "حِينَئِذٍ كَلِمَ مُتَّقُوا الرَّبَّ كُلُّ وَاحِدٍ قَرِيْبِهِ وَالرَّبُّ أَصْنَى وَسَمِعَ وَكُتِبَ أَمَامَهُ سِفْرٌ تَذَكُّرَةٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا الرَّبَّ وَالْمُفَكِّرِينَ فِي اسْمِهِ" ⁽¹¹⁹⁾. وقال أوائلنا في شرح "واللمفكرين في اسمه": "وإن فكر في فعل وصية [يثاب عليها] فتعذر عليه ولم يفعل، فقد كتبت له وكأنه فعلها".

فلما وفقت على تأكيد العقل والكتاب والنقل على فرائض القلوب، أخذت في رياضة نفسي عليها، وحملتها الإحاطة بعلمها وعملها، فكُلِّمًا استكشفت منها عن معنى دلَّني على ما يليه، إلى أن اتَّسع الأمر وعسر ضبطه وحفظه في نفسي، وخفت النسيان لما حصل في ضميري منها، والسَّيْلان لما انعقد في

115) ח וְכִי-תִגִּישׁוּן עוֹר לִזְבַּח אִין רַע, וְכִי תִגִּישׁוּ פֶסֶח וְחֹלֶה אִין רַע; הַקְרִיבֵהוּ נָא לַפֶּחֶתְךָ, הִירָצֵן אוֹ הַיֵּשָׁא פְגִיץ. (מִיכָא 8/1).

(116) הִנֵּה שָׁמַע מִזְבַּח טוֹב, לְהַקְשִׁיב מִחֻלָּב אֵילִים (צמון 1, 22/15).

117) יַעֲזֹב אֲשֶׁר הָיָה עִם-לִבְבֶךָ, לִבְנוֹת בַּיִת לַשָּׁמַיִם--הַטִּיבוֹתָ, כִּי הָיָה עִם-לִבְבֶךָ. (אֲחָבָר
אֵלִיָּאם 2, 8/6).

118) טז אָז נדבָּרוּ יִרְאֵי יְהוָה, אִישׁ אֶל-רֵעֵהוּ; וַיִּקְשֹׁב יְהוָה, וַיִּשְׁמָע, וַיִּכְתֹּב סֵפֶר זִכְרוֹן לְפָנָיו לְיִרְאֵי יְהוָה, וּלְחֹשְׁבֵי שְׁמוֹ. (מלאכי 16/3).

119) ולחשבי שמו (ולחשפי שמו). وهذه فقرة من النص المستشهد به من التلمود البابلي، وهو: "מאי ולחשבי שמו, אפילו חשב לעשות מצווה ונאנס ולא עשאה, מעלה עליו הכתוב כאלו עשאה: (שבת סג,א).

خاطري منها، مع قلة الأعوان من أهل عصرنا عليها، فعزمت أن أثبتّها في كتاب، وأن أضبطها في ديوان يحوي أصولها ويحيط بفصولها وجملتها من فروعها، لأطالب نفسي عن [ب]ـعلمها وإلزامها عملها، فلمّا وافق عملي منه قولِي، حمدت الله جلّ وعزّ المعين عليه، والموفق إليه، وما خالف وقصر عنه، ذممت نفسي ووبختّها، وأقمت الحجة عليها منه، ليستبين لها جورها بعدله، وميلها بتقافه، واعوجاجها بقوامه، وتقصيرها بتمامه. ثم رأيت أن أجعله كلمة كلية باقية، وكنزاً مذكراً، وسراجاً يستضيئ الناس بنوره، ويهتدون بهداه، إذ رجوت أن يكون انتفاع غيري به، أكثر من انتفاعي به، واهتداء سواي به من كمال حظي فيه. فعزمت أن أصنّف في هذا المعنى كتاباً مفصلاً على أصول فرائض القلوب ولوازم الضمائر، وأجعله جامعاً لجملتها كافية في معانيها، موضحاً لسبل الخير دالاً على منهاج الرّشاد، قائداً إلى مسالك السلف، حاملاً على أدب الصّالحين، منبهاً من الغفلة، ميقظاً [موقظاً] من السّنة، غائصاً على دقائق هذا العلم ولطائفه، ملهماً إلى العلم بالله وبشرائعه، باعثاً على طلب النّجاة، منشطاً للعمل، منهضاً للمتغافل، هادياً للسّابق الأوّل، ملحقاً للتّابع الأخـ[ب]ـر، مدرباً للمبدين، ومسدداً للمتحيّرين.

فلما هممت بإنفاذ عزمي ورأيي على تأليفه، لم أر مثلي لتعاطي تأليف مثله أهلاً، وشعرت من نفسي بالتّقصير عن التّصنيف وتوفيته حقه، لتخلفي ونقصان علمي، ونُبُوّ فهمي عن الإحاطة بالمعاني، وجهلي بفصيح لغة العرب ونحوها التي بها عبرتُ عنه، لسهولة فهم أهل عصرنا لها. وخفت أن يلحقني فيه التّكلف، وأن أجاوز منزلة القصد والاعتدال فيه، فحدّثت نفسي بالانصراف عنه، وأن أقعدها عمّا نازعت إليه منه، فلمّا أشرت بطرح الكلفة عني، وأنست إلى الرّاحة من تأليفه، أدركني اتّهام نفسي في إثارتها الرّاحة، واستيطانها مهاد العجز والدعة، وخفت أن يكون رضا الهوى في ترك هذه الهمة، وأن يكون مال بي إلى ميدان السّكون والرّاحة، والرّكون إلى طلب المتاركة، والقعود بمحلة العجزة، وعلمت أن ربّ خيبة جلبتها الهيبة، وربّ حرمان قادته النّقيّة،

وذكرت قول القائل : "إن من التوقي ترك الإفراط في التوقي". وقلت : "لو كان من رام أمراً من أمور الخير، أو رشاداً إلى هدى ودلالة على صواب، سكت عن ذلك حتى تخلص له جميع مطالبه، لما نطق أحد بكلمة بعد الأنبياء (عم)، الذين اصطفاهم الله لرسالته، وقرنهم بتوقيفه. ولو كان كلُّما رام رائم استكمال خلال الخير وعجز عنها، ترك أن يأخذ ما نال بغفوة منها"⁽¹²⁰⁾، لكان الناس عن الخير بطاءً، ومن المناقب صفراً، ولترددوا في ساحة الخيبة، ولخلت سبل الخير، وهُجر فناء الفضل". ثم تبينت أن النفوس كثيرة الحرص والشره إلى غاية الشر، متعاسة عن تناول الفضل، عواجز في المسابقة إلى الخيرات، ساعية سعيًا دائماً في ميدان اللهو واللعب، وإن لاح لها لائح هوى يستدعيها، افتعلت معاذر الإفك بالتهوُّض إليه، وحرفت الحجة له، وأقامت ميله، وقوت أسبابه، وأبرمت مُنقَضَه. وإن أنار لها سراج حق فدعيت إليه، اختلقت معاذر الباطل في القعود عنه، ونصبت الحجة، وأخطأت السبيل إليه، ووهنت أسبابه، ونكثت مبرمه، وخوفت منه، فكل أمرئ عدوه بين جنبيه، إلا أن تكون له من الله عصمة، ومن نفسه واعظ حاضر، وسُلطان قاهر، قد ألقى عليها زمام الرياضة، وضبطها بعنان العدل، وأذاقها مرَّ سوط الأدب، فإذا هم بخير نفذ، وإن سولت نفسه غير ذلك زجر وقهر. فرأيت أن أقهر نفسي على احتمال مشقة التأليف لهذا الكتاب، والتصنيف لمعانيه بأي لفظ أمكنني، وبأية عبارة حضرتني، إذا فهم المعنى بها. وأذكر من فروع فرائض القلوب ما حضرني، ولا أحتفل في استكمالها واستيفائها، لكي لا يطول الكتاب، لكني أذكر من مهمات كل أصل من أصوله في باب ما يليق به، وبالله الواحد الحق أستعين، وعليه أتوكل، ومنه أسأل توفيقاً وتسديداً فيه إلى ما يرضاه ويتقبله من علم وعمل باطن وظاهر مني برحمته.

(120) هكذا هذه الجملة في النص، وترجمها ابن تبون "ترك ما تيسر له منها" ص. 5 (30).

فلما تم رأيي وعزمي على تصنيفه، لخصت أسسه، ومهدت قواعده، وبنينه على عشرة أصول جامعة لجملة فرائض القلوب، وقسمته على عشرة أبواب يختص كل باب منها بأصل واحد من أصوله، ويتضمن حدوده وأقسامه، وتوابعه ووجوه مفسداته، واسلك فيه طريق التنبيه والهداية والإرشاد باللفظ البين القريب المستعمل، ليسهل فهم المعنى المقصود شرحه، وأجتنب فيه الكلام المستغلق، واللفظ الغريب، والبراهين الجدلية، والمطالب البعيدة التي لا يسهل حلها والجواب عنها في مثل هذا الكتاب. إذ استعملت فيه البراهين الإقناعية التي تسكن النفس إليها على شروط العلم الإلهي، كما قال الفيلسوف: "ليس ينبغي لنا أن نطلب في إدراك كل مطلوب الوجود البرهاني، فإنه ليس كل مطلوب عقلي موجوداً بالبرهان. ولا نطلب في العلم الرياضي الإقناع ولا في العلم إلهي حساً ولا تمثيلاً، ولا في أوائل العلم الطبيعي برهاناً، ولا في أوائل البرهان برهاناً. فإنا إن تحفظنا من هذه الشرائط، سهلت علينا المطالب المقصودة، وإن خالفنا ذلك، أخطأنا أغراضنا وعسر علينا وجدان مقصودنا".

فلما كان كتابي هذا من العلم الإلهي، تحفظت فيه من الدلائل التي تجري على قوانين المنطق والعلم الرياضي، إلا أن في الباب الأول منه، ربما دفعت الضرورة إليها لدقة مطلوبنا فيه. وجعلت أكثر دلائلي عليه من الأمور المعقولة، وقربتها بالمثلثات القريبة التي لا شك في صحتها وصدقها، ثم أتبع ذلك بالمكتوب في كتب الأنبياء والأولياء ثم أتبع ذلك بأثار النقل عن أوائلنا⁽¹²¹⁾، والأفاضل الحكماء من كل طبقة الذين بلغتنا أخبارهم، لما رجوت من سكون النفس إليها، وإصغاء القلوب إلى علمها، مثل نواذر الفلاسفة وآداب أهل الزهد في الدنيا وسيرهم المحمود، وقد قال أوائلنا (عم) : "لقد جاء في مكتوب⁽¹²²⁾ : عَمِلْتُمْ حَسَبَ أَحْكَامِ الْأُمَمِ الَّذِينَ حَوَّكُم"⁽¹²³⁾. وفي مكتوب

(121) يقصد بالأولياء الأنبياء مثل داود وسليمان، ويقصد بالأوائل شيوخ التلمود.

(122) يحيل هنا على تعليق التلمود على ما جاء في سفر حزقيال 12/11.

(123) وكتيب (יחזקאל יא) וכמשפטי הגוים אשר סביבותיכם עשיתם (סנהדרין לט ב).

آخر قال ⁽¹²⁴⁾ : "لم تعملوا". فكيف ذلك ؟ [يعني] لم تعملوا كالمصلحين بينهم وعملت كالمفسدين بينهم" ⁽¹²⁵⁾. وقالوا : "كل من تفوه بحكمة وإن كان من الأممين [وإن لم يكن يهودياً] فهو حكيم" ⁽¹²⁶⁾. وقالوا في استعمال الأمثل وتقريب المعاني العويصة بها "عَلِمَ بِالرَّمْزِ وَأَبْنُ بِالْمَثَلِ" ⁽¹²⁷⁾ وقال الحكيم [سليمان] : "لَفْهَمَ الْمَثَلُ وَلَغَزَ أَقْوَالِ الْحُكَمَاءِ وَعَوَّامِضِهِمْ" ⁽¹²⁸⁾.

فلما عزمت على إثبات أول فرائض القلوب في كتابي هذا، استعملت قياسي في اختيارها لتكون جامعة لغيرها وحلوية لسائرهما، فوضعت أصلها الأعلى وأسسها الأكبر، إخلاص التوحيد لله [بقلب سليم] ⁽¹²⁹⁾.

ثم نظرت إلى ما يلزمنا من اتباع التوحيد به من الفرائض المذكورة المشاكلة له منا. فعلمت علماً يقينياً أن الخالق (تع) لما كان واحداً حقاً، ولا يلحقه اسم جوهر ولا عرض، ولم يتجاوز فكرنا إلى إدراك ما ليس بجوهر ولا عرض، امتنع علينا إدراكه من جهة ذاته، فلزم تعريفنا به وإدراكنا لوجوده من جهة مخلوقاته، وهو باب الاعتبار بالمخلوقين، فوضعت الاعتبار أصلاً ثانياً لجملة من فرائض القلوب.

ثم تأملت إلى ما يلزم للواحد الحق من الربوبية، وما يحق على المخلوقين من عبوديته، فوضعت التزام الطاعة لله أصلاً ثالثاً لجملة فرائض القلوب.

(124) يحيل هنا على تعليق التلمود على ما جاء في سفر حزقيال 7/5.

(125) وכתוב אחד אומר וכמשפטי הגוים אשר סביבותיכם עשיתם. וכתוב אחד אומר לא עשיתם הא כיצד כמתקנים שבהם לא עשיתם כמקולקלין שבהם עשיתם. (סנהדרין לו ב)

(126) כל האומר דבר חכמה אפילו באומות העולם נקרא חכם (מגלה טז א).

(127) אגמרה בסימנין ואסברה בדדמי לה (עירובין כא ב).

(128) להבין משל, ומלצה; דברי חכמים, וחידתם (אמל 6/1).

(129) زيادة في ترجمة ابن تيمون، ص. 33).

ثم تبيننت إلى ما يلزم الواحد الحق من انفراده بتدبير الكل، وأنّ النفع والضرر ليس بيد غيره ولا في مقدور سواه إلاّ عن إذنه، لزمنا [فوجدت] التوكّل عليه والاستسلام إليه، فوضعت التوكّل أصلاً رابعاً لجملة من فرائض القلوب.

ثم تفكرت في معنى الواحد الحق من اختصاصه بذاته ولا يشارك شيئاً ولا يشبه شيئاً، [ف]أتبعت ذلك [ب]إفراده بالطاعة والعبادة بإخلاص عملنا لوجهه، إذ لا يقبل العمل المشترك فيه غيره معه، فوضعت إخلاص العمل لله أصلاً خامساً لجملة من فرائض القلوب.

ثم أجلت فكري فيما يلزمنا للواحد الحق من التعظيم والإجلال، إذ ليس كمثلته شيء، فتبع ذلك التواضع له كحسب ما يستأمله، فوضعت التواضع أصلاً سادساً لجملة فرائض القلوب.

ثم لما تصفّحت ما يجري على الناس من الغفلة والتقصير فيما يلزمهم من طاعة الله جلّ وعزّ، وكان وجه استدراك غلطهم وتقصيرهم التوبة والاستغفار، وضعت التوبة أصلاً سابعاً لجملة فرائض القلوب.

ثم لما فحصت عن إدراك حقيقة لوازمنا لله عزّ وجلّ من الفرائض الظاهرة والباطنة، وعلمت أنّها لا تصحّ منّا إلاّ بمحاسبة أنفسنا عن ذلك والتقصّي [والقسوة؟] ⁽¹³⁰⁾ عليها، وضعت المحاسبة للنفس أصلاً ثامناً لجملة فرائض القلوب.

ثم رددت خاطري في معنى الواحد الحق، فرأيت أنّ توحيده بإخلاص لا يصحّ في نفس المؤمن إذا سكر قلبه من شراب حبّ الدنيا واسترساله إلى [في] شهواته البهيمية، فإذا رام تفريغ ضميره وإخلاء باله من فضول الدنيا بالزهد في لذاتها، تمكّن التوحيد التام من قلبه، وخلصت له فضيلته، فوضعت الزهد في الدنيا أصلاً تاسعاً لجملة فرائض القلوب

(130) ترجم ابن تبون الكلمة بما يقابل "التقصي" أيضاً، وهو غير ملائم.

ثُمَّ بَحِثْ عَمَّا يَلِزُنَا لِلخَالِقِ (تَع) الَّذِي هُوَ غَايَةُ كُلِّ أَمَلٍ، وَنَهَايَةُ كُلِّ رَجَاءٍ، إِذْ مِنْهُ الْإِبْتِدَاءُ وَإِلَيْهِ الْإِنْتِهَاءُ، وَمَا يَسْتَوْجِبُهُ مِنَّا مِنَ الْمَحَبَّةِ فِي رِضَاهُ، وَالْخَوْفِ مِنْ سَخَطِهِ الَّذِينَ [الَّذِينَ] هُمَا غَايَتَا السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، كَقَوْلِ الْوَلِيِّ (عَم) : "فَإِنَّ غَضَبَهُ لَحِظَةٌ وَرِضَاهُ مَدَى حَيَاةٍ" ⁽¹³¹⁾ فَوَضَعْتَ الْمَحَبَّةَ فِي اللَّهِ تَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ أَصْلًا عَاشِرًا لَجُمْلَةِ فَرَائِضِ الْقُلُوبِ.

فَلَمَّا صَحَّ لِي ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْقِيَاسِ، بَحِثْتُ عَنْهَا فِي الْمَكْتُوبِ وَالْمَنْقُولِ، فَوَجَدْتُهَا مُرَدَّدَةً فِيهِمَا كَثِيرًا، وَسَأَبِّينَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا فِي بَابِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَوَسَمْتُ كِتَابِي هَذَا بِاسْمِ وَافِقٍ غَرَضِي فِيهِ، وَذَلِكَ [هُوَ] كِتَابُ الْهُدَايَةِ إِلَى فَرَائِضِ الْقُلُوبِ. وَقَصَدْتُ فِيهِ التَّلَطُّفَ وَالتَّنْبِيهَ لِأَهْلِ الْغَفْلَةِ وَالتَّقْصِيرِ مِنْ ذَوِي شَرِيعَتِنَا وَمُنْتَحَلِي رِسُومِ دِينِنَا، بِمَا يَقْنَعُهُمْ مِنَ الدَّلَائِلِ الَّتِي يَشْهَدُ الْعَقْلُ بِصَحَّتِهَا وَصَدَقِهَا وَلَا يَنْكُرُهَا إِلَّا أَهْلُ الْمِرَاءِ وَالْبَاطِلِ، اسْتِنْقَالًا مِنْهُمْ لِلْحَقِّ وَطَلَبِهِمُ التَّخْفِيفَ عَنْهُمْ، فَلَا أَحْفَلُ بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ، إِذْ لَمْ أَقْصِدْ فِي كِتَابِي هَذَا الرَّدَّ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَصْلَ اعْتِقَادِنَا، بَلْ قَصَدْتُ فِيهِ الْكُشْفَ عَمَّا هُوَ مُرَكَّزٌ فِي الْعُقُولِ الصَّافِيَةِ مِنْ أَصُولِ دِينِنَا، مَكْنُونٍ فِي نَفُوسِنَا مِنْ أَقْطَابِ شَرِيعَتِنَا، إِذَا اسْتَعْمَلْنَا خَوَاطِرَنَا فِيهَا تَبَيَّنَتْ صَحَّتُهَا فِي ضَمَائِرِنَا، وَظَهَرَتْ أَنْوَارُهَا عَلَى جَوَارِحِنَا.

وَمِثَالُ ذَلِكَ رَجُلٌ مِنْ حِذَاقِ الْمُنْجِمِينَ دَخَلَ دَارَ صَدِيقٍ لَهُ، فَشَعَرَ بِكَزْرِ فِيهَا، فَأَثَارَ [فَأَخْرَجَ؟] ⁽¹³²⁾ الْكَزْرَ، فَوَجَدَ فَضَّةَ سُودَاءٍ قَدْ تَغَيَّرَتْ صَوْرَتُهَا لَمَّا عَلَاهَا مِنَ الصَّدَأِ "وَالضَّرَاءِ" ⁽¹³³⁾، فَقَصَدَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَعَالَجَهُ بِالْمِلْحِ وَالْخَلِّ، وَغَسَلَهُ وَنَظَفَهُ، حَتَّى عَادَتْ الْفَضَّةُ إِلَى أَجْمَلِ حَسْنِهَا وَرَوْنِقِهَا، ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ الدَّارِ بِامْتِثَالِ ذَلِكَ فِي سَائِرِ الْكَزْرِ.

(131) كِي רָגַע, בַּפֶּה חַיִּים בְּרָצוֹנו. (مزامير 6/30).

(132) فِي تَرْجُمَةِ ابْنِ تَيُونِ "بَحْثٌ".

(133) "الضراء" غَيْرُ مُوجُودَةٍ فِي تَرْجُمَةِ ابْنِ تَيُونِ، وَيُظْهِرُ أَنَّهَا زَائِدَةٌ.

وأنا قصدت إلى مثل ذلك في كنوز القلوب، لأكشف عنها وأظهر وجه فضائلها، ليمتثل ذلك من أراد التقرب إلى الله عز وجل، والتزلف لديه.

فإذا قرأت كتابي هذا يا أخي، ووقفت على معانيه، فاتخذته تذكراً لك، وانصف الحق من نفسك، وتردد فيه وفرّعه، والزمه قلبك وضميرك، وما بدا إليك من خلله سدّه، ومن نقصانه تمّمه، واقصد فيه قصد العمل بما يحثّ عليه، ويرشد إليه، لا قصد الثناء والتفاخر بعلمه، ووسّع عذري فيما اطلعت فيه من خلل أو زلل، وفيما يظهر لك من تقصيري في معناه وفي لفظه، فإنني سارعت به ولم أتردد فيه، خوفاً من معاجلة المنية لي، فتقطعني عما رجوته منه، وفي علمك أن النحيزة⁽¹³⁴⁾ البشرية مقصرة، والطبيعة الإنسانية ناقصة عن التمام، كقول الولي: "باطل بنو آدم. كذب بنو البشر في الموازين هم إلى فوق. هم من باطل أجمعون"⁽¹³⁵⁾. وقد تقدّم من اعتذاري بتقصيري ما يقوم بعذري من زلل إن كان فيه مني.

وينبغي أن تعلم أن جميع فرائض القلوب وآداب النفوس داخلّة في طيّ هذه الأصول العشرة التي ضمّنها كتابي هذا: أمرها ونهيها، كدخول جملة من الشرائع في طي: "بل تحب قريبك كنفسك"⁽¹³⁶⁾ وفي طي قول الولي (عم): "ما عمل شراً لأقربيه"⁽¹³⁷⁾ وفي طي: "باين الشر وعمل خيراً"⁽¹³⁸⁾. فألزمها قلبك، وردّها في خاطرك دائماً، فتظهر إليك فروعها بعون الله جلّ وعزّ، إذا اطلع من نيتك الحرص عليها والميل إليها، كما قال الولي (عم): "من هو

(134) الطبيعة.

(135) אך, הָבֵל בְּנֵי-אָדָם--בְּנֵי-אִישׁ בְּמֵאֲזִינִים לְעֵלּוֹת; הֵמָּה, מִהֶבֶל יָחִיד. (مزامير 10/62).

(136) וְאֶהְיֶה לְעֵץ בְּמוֹד (لاويون 18/19).

(137) לֹא-עָשָׂה לְרַעְהוּ רָעָה (مزامير 3/16).

(138) סוּר מִרָע, וְעָשָׂה-טוֹב (مزامير 15/34).

الرَّجُلُ الَّذِي يَتَّقِي الرَّبَّ ؟ فَإِنَّهُ يُرْشِدُهُ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي يَخْتَارُ، فَتَسْكُنُ نَفْسُهُ فِي الْخَيْرِ وَذُرِّيَّتُهُ تَرِثُ الْأَرْضَ. سِرَّ الرَّبِّ لِمَنْ يَتَّقُونَهُ وَلَهُمْ يُعْلَنُ عَهْدُهُ" (139).

ورأيت أن أختتم صدر كتابي بمثل حسن ينشطك إلى الوقوف على أغرضه، وينبئك على علم منزلة هذا الصنف من الشريعة إلى سائرها، ومنزلة سائر العلوم، أعني الطبيعية والرياضة والمنطق، إلى علم الشريعة، فتفهمه عند قراءتك له، وردده في خاطرك تصبب إن شاء الله. وذلك أن ملكاً من الملوك قسم على عبيده "لوز" (140) حرير ليختبر به عقولهم، فالحاذق اللبيب منهم تخير في ما حصل منه عنده أفضله، ثم تخير فيما دونه أفضله أيضاً، فقسمه على ثلاثة أصناف : فاضل ووسط وساقط. ثم صنع من كل صنف على حدته أفضل ما ينبغي أن يصنع منه، ثم استعمل منه عند طبقات الصنائع ثياباً حريرية مختلفة الأشكال والألوان، ثم تزين بها بين يدي الملك في كل زمان وفي كل مكان، حسب ما شاكله منها. والجاهل من عبيد الملك صنع من جملة ما حصل عنده من الحرير ما صنع الحاذق بالصنف الأدنى الساقط من حريره، ثم أخذ فيه من الثمن ما يسر، واستعجل فائدته بطعام طيب وشراب لذيق وما أشبه ذلك، فلما اتصل ذلك بالملك استحسن فعل الحاذق اللبيب فقربه وأدناه من حضرته، وأنزله في مرتبة الخاصة عنده، واستقبح فعل الجاهل من عبيده وأبعده ونفاه إلى أوحش مكان في بلاده، وأسكنه دار أهل سخطه.

وكذلك يا أخي أورد الله جلّ وعزّ على خلقه كتابه الصادق اختباراً لنا، فالعقل الذكي اللبيب إذا قرأ كتاب الله وفهمه فهماً جيداً قسمه على ثلاثة أجزاء، أحدها معرفة المعاني اللطيفة الروحانية التي هي العلم الباطن، مثل علم فرائض القلوب وآداب النفوس، فيلزم نفسه العمل بها دائماً، ثم يستخلص منه جزءاً ثانياً

(139) יב מי-זה האיש, ומה יהנה יורנו, בדרך יבחר. יג נפשו, בטוב תליו, ונרעו, יירש ארץ. יד סוד יהנה, לרעיו; ובריתו, להודיעם. (מזמיר 12/25-14).

(140) هكذا ولم أجد لها معنى في العبرية. ولعله يقصد شرائق الحرير، وهذا ما فهمه A. Chouraqui. في ترجمته الفرنسية، حيث ترجم الكلمة بـ Cocons. الترجمة المشار إليها، ص. 40.

وهو علم فرائض الجوارح في زمانه وفي مكانه، ثم يستعمل الجزء الثالث في علم التواريخ ومعرفة طبقات الناس وتناسلهم على رتبة الأجيال السالفة، وما جرى من القصص والأخبار في عهد الماضين، ويصرف كل شيء من ذلك في زمانه وفي مكانه اللائق به حسب الحاجة إلى ذلك، ويستعين على تصرفه في كل واحد منها بالعلم الرياضي وبعلم البرهان وبعلم الاستدلال المنطقي، إذ منها تكون المقدمات للعلم الإلهي، لأن من جهلها لم يميز آثار حكمة الخالق (تع) في مخلوقاته، وجعل أمور جسمه فضل عن سواه، كما استعمل العبد الحاذق آلات أصحاب الصناعات في تمام ما قصد عمله من تحرير الملك. والجاهل الغبي إذا وقف على كتاب الله يستعمله في علم أخبار من سلف، وتاريخ من تقدم، ويستعجل به فوائد الدنيا، ويقيم الحجة به ومنه على اتباع الهوى. وترك الزهد في الدنيا والمساعدة بجميع طبقات الناس على أخلاقهم ومذاهبهم، فهو كما قال الحكيم: "مَنْ فَقَدَ التَّأْدِيبَ يَمُوتُ، وَبِفِرْطِ حَمَاقَتِهِ يَهِيم" (141).

فاعتبر يا أخي هذا المثل وردده في خاطرك، واستعمل فيه فكرك، وافهم من كتاب ربك ما نبهتك عليه، واستعن في إدراك ذلك بقراءة كتب "الربّي سعديه" (142) نضر الله وجهه وقّده روحه، فإنها تثير العقول وتحقق الأذهان، وترشد الغافل، وتنهض الكاسل (هكذا). وفقنا الله وإياك إلى طاعته، ورشدنا إلى سبيل عبادته برحمته، كما سأله وليّه: "عَرَفْنِي سَبِيلَ الْحَيَاةِ. أَمَامَكَ أَلْتَدُنِي الشَّبَعِ. فِي يَمِينِكَ نَعَمٌ إِلَى الْآبِدِ" (143).

وهذا نظام أبواب كتابي هذا على تواليها :

باب في شرح وجوه إخلاص التوحيد لله عزّ وجلّ.

باب في شرح وجوه الاعتبار بالمخلوقين وفضل نعمة الله عليهم.

(141) הוא-ימות, באין מוסר; ובגב אנלתי ישה. (أمثال 23/5)

(142) רבנו סעדיה (ربنو سعديه).

(143) תודיעני, ארח חיים שבע שמחות, את-פניך; נעמות בימיך נצח (مزامير 11/16)

باب في شرح وجوه وجوب التزام طاعة الله علينا.

باب في شرح وجوه وجوب التوكّل على الله عزّ وجلّ.

باب في شرح وجوه وجوب إخلاص عملنا لوجه الله والتحفظ من الرياء.

باب في شرح وجوه وجوب التواضع والخشوع لله علينا.

باب في شرح وجوه وجوب التوبة وحدودها وتوابعها.

باب في شرح وجوه وجوب محاسبة الإنسان نفسه لله.

باب في شرح وجوه وجوب الزّهد وما يصلح لنا منه.

باب في شرح وجوه وجوب المحبة في الله عزّ وجلّ ودرجاتها.

انتهت المقدمة وبعدها يبدأ المؤلف في شرح وجوه إخلاص التّوحيد لله عزّ وجلّ.